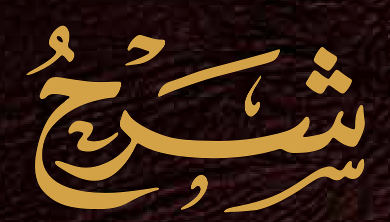
سلسلة شروح وتطريزات فضيلة الشيخ (٢١)



بهجة الطلب
في آداب الطلب

منقول من الشرح الصوتي لمعالي الشيخ الدكتور
صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي
عضو هيئة كبار العلماء والمدرس بالحرمين الشريفين
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

النسخة الثانية




شرح
بهجة الطلب
في آداب الطلب

سلسلة شروحات وتطريزات فضيلة الشيخ (٢١)

شرح
بهجة الطلب
في آداب الطلب

منقول من الشرح الصوتي لمعالي الشيخ الدكتور

صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي

عضو هيئة كبار العلماء والمدرس بالحرمين الشريفين

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

النسخة الثانية



للإعلام بالأخطاء الطِّباعية والاستدراكات والاقتراحات؛

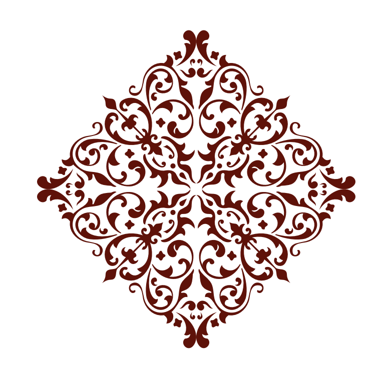
يُرجىٰ المراسلة علىٰ البريد التالي: Abdellahdj24@gmail.com



الحمد لله الَّذي جعل للعلم أُصولًا، وسَهَّل بـها إليه وُصولًا، وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحدَه لَا شـريك لهُ، وأشهد أنَّ مـحمَّدًا عبدُه ورسوله صلَّى الله عليه وعلى آله وصـحبه مَا بُيِّنَتْ أُصـولُ العلومِ، وسَـلَّم عليه وعليهم ما أُبْرِزَ الـمَنْطُوقُ منها والـمفهومُ.

أمَّا بعدُ:

فَهٰذَا شَـرْح (**الكتاب الأوَّلِ**) من (**الـمستوى الثَّاني**) مِنْ برنَامجِ (**أُصـولِ العلمِ**) في (**سـنتِهِ الخامسـةِ**)؛ سبعٍ وثلاثينَ وأربعمائةٍ وألفٍ، وَثمـانيةٍ وثلاثينَ وأربعمائةٍ وَألفٍ، وهو كتابُ «**بَـهْجَةُ الطُّلَب فِي آدَابِ الطَّلَب**»، لـمُصنِّفه صالحِ بنِ عبد اللهِ بنِ حمدٍ العصيميِّ .





قَال المُصَنِّف وَفَّقَهُ اللهُ:

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْـــــــدُ للهِ لَهُ الْإِحْـــــكَامُ	ثُــمَّ الصَّـــلَاةُ بَعْـدُ وَالسَّـــلَامُ
عَلَى مُحَمَّـــــــدٍ رَسُـــــولِ اللهِ	وَآلِهِ طُـــــرًّا بِــــلَا تَنَـــاهِي
وَبَعْــدُ ذِي أُرْجُـــوزَةٌ جَـــدِيرَهْ	بِـــالْحِفْظِ وَالْإِدْرَاكِ بِالْبَصِـــيرَهْ
لِلُّؤْلُــؤِي تُعْــزَى أَوِ الْمَــأْمُونِ	وَنَصُّـــهَا الْمَجْـــلِيُّ لِلْعُيُـــونِ

قَال الشَّارِح وَفَّقَهُ اللهُ:

ابتدأَ النَّاظِمُ وفَّقه اللهُ منظومتَهُ بالبسملةِ، ثمَّ ثَنَّىٰ بالحمدلةِ، ثمَّ ثَلَّثَ بالصَّلاة والسَّلام علىٰ رسولِ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقرونةً بالصَّلاة والسَّلام علىٰ آلِهِ.

وهَؤُلَاءِ الثَّلاث مِن آدابِ التَّصنيفِ اتِّفاقًا؛ فإنَّ مِن مُستحسنات الآدابِ في ابتداءِ التَّصانيف: أنْ يُقدَّم في صَدرِها البسملةُ، ثمَّ يُثنَّىٰ بالحمدلَة، ثمَّ يُثَلَّث بالصَّلاة والسَّلام علىٰ النَّبيِّ وعلىٰ آله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعليهمْ أجمعينَ.

وأَكَّد النَّاظِمُ الصَّلاةَ عَلَىٰ الآلِ بقولِه: (**طُرًّا**)؛ أَيْ جميعًا؛ تحقيقًا لشُمولِها آلَ النَّبيِّ كُلِّهم؛ وهم بنُو هاشِمٍ القُرشيُّونَ وأزواجُ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فاسْمُ (آلِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَجْمَعُ شَيْئَيْنِ:

- **أَحَدُهُمَا**: مَنْ نَسَلَ مِنْ ذُرِّيَّةِ هَاشِمٍ.

❁ **وَالآخَرُ**: أَزْوَاجُ النَبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وَلَوْ كُنَّ مِنْ غَيْرِ بَنِي هَاشِمٍ أَوْ قُرَيْشٍ.

وَالـمَخْصُوصُونَ بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ مِنَ الآلِ: هُمُ الـمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ.

وجَعَل النَّاظِمُ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ علىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلىٰ آلِه ممدودةً غيرَ محدودةٍ؛ لقوله: (**بِلَا تَنَاهِي**)؛ أيْ بلا حَدٍّ تنتهي إليه.

والمَطلُوب شرعًا: الإِكثَارُ مِنَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ علىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعَلَىٰ آلِهِ.

وَالـمُرَادُ بِـ(الإِكْثَارِ): غَلَبَةُ الأَمْرِ عَلَىٰ العَبْدِ حَتَّىٰ يَتَمَيَّزَ بِهِ، فَالـمُكْثِرُ مِنَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ علىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلىٰ آلِه هوَ الَّذِي يغلِبُ عَلَىٰ لِسَانِهِ ذِكْرُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عليهِ وعليهِمْ.

ورُوِيَتْ أَحَادِيثُ فِي جَعْلِ ذَٰلِكَ عَشْرًا، أَوْ مِائَةً، أَوْ خَمْسِينَ، أَوْ أَلْفًا = وَكُلُّ تِلْكَ الأحاديثِ لَا يَثْبُتُ مِنْهَا شَيْءٌ، **فَالأَحَادِيثُ الوَارِدَةُ فِي تَقْدِيرِ عَدَدٍ يُصَلَّىٰ وَيُسَلَّمُ بِهِ عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضِعَافٌ لَا يَصِحُّ مِنْهَا شَيْءٌ**.

واسم (الإكثارِ) يحصل بغلَبتها علىٰ لسان العبدِ.

فمثلًا: المأمورُ به من الإكثارِ من الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ علىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلةَ الجمعةِ ويومَهَا لا يحصُل بِعَدَدٍ مُعَيَّنٍ، بأنْ تُصلِّيَ عشرًا، أو خمسينَ، أو مائةً، أو ألفًا، وإنَّما يحصلُ بِأَنْ تَغْلِبَ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ علىٰ لسانِك في أحوالِكَ في تلك اللَّيلةِ ويومِهَا.

فلو قُدِّرَ أَنَّ أحَدًا صَلَّىٰ وسَلَّم قطعةً من اليومِ جَلَس فيهَا فصلَّىٰ وسلَّم خَمسينَ أو مائةً؛ فاسمُ (الإكثَارِ) لا يتحقَّق عليهِ، وإنَّما يتحقَّق بِأَنْ تَغْلِبَ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ علىٰ لسانِه في جميعِ ذَٰلِكَ اليومِ وليلتِه.

وَمِنْ حِسَانِ المَأْثُورَاتِ: مَا رَوَاهُ قَوَّامُ السُّنَّةِ الأَصْبَهَانِيُّ، فِي كِتَابِ «فَضَائِلِ الأَعْمَالِ»، عَنِ الحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ أَنَّهُ قَالَ: «عَلَامَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ: كَثْرَةُ الصَّلَاةِ عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

ثمَّ ذَكَرَ النَّاظم أنَّ الـمسوقَ هنَا مِن نَظْمِهِ حقيقٌ بأمريْنِ، هو جديرٌ بـهما:

- **أحدهما**: الحفظُ للمَبَانِي.
- **والآخر**: الفهمُ للمعانِي.

فِي قولِهِ:

وَبَعْدُ ذِي أُرْجُوزَةٌ جَدِيرَهْ ... بِالْحِفْظِ وَالْإِدْرَاكِ بِالْبَصِيرَهْ

فقولُه: (**بِالْحِفْظِ**)؛ إشارةٌ إلىٰ حِفْظ الـمباني.

وقوله: (**وَالْإِدْرَاكِ بِالْبَصِيرَهْ**)؛ إشارةٌ إلَىٰ فَهْمِ المعانِي؛ لِأَنَّ **حقيقةَ الإِدْرَاكِ**: الفَهْمُ، **وَآلَتُهُ**: البَصِيرَةُ القَلْبِيَّةُ، فمَنْ وَجَّه بصيرتَهُ القلبيَّة في وَعْيِ شيءٍ فَهِمَهُ وأَدْرَكَهُ.

وَهٰذِهِ الـمنظومةُ الَّتِي اصْطَفَاهَا ناظمُهَا لتكونَ رأسَ ما يُحْفَظُ في آدابِ الطَّلَب، مِمَّا شُهِرَ بعضُ أبياتِهَا مُرْسَلًا، فَسَتَعلمُ فيمَا يُستقبَل أنَّ هٰذِهِ الـمنظومةَ مـمزوجةٌ بينَ نَظْمِ ناظمِهَا الَّذي جَعَلَ لَهَا مُقَدِّمَةً وخاتـمةً، مَعَ أبياتٍ تُنسَب لغيرِهِ؛ هيَ المبدوءة بقوله: (اعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ بِالتَّعَلُّمِ) إلَىٰ تـمامِ الـمنظومَةِ؛ سوىٰ البيتِ الأخيرِ.

فَمَا بَيْنَ الـمُقَدِّمَةِ وَالخَاتِمَةِ اخْتُلِفَ فِي قَائِلِهِ، فَعُزِيَ إِلَىٰ رَجُلَيْنِ:

- **أَحَدُهُمَا**: اللُّؤْلُؤِيُّ؛ وَهِيَ نِسْبَةُ جَمَاعَةٍ، أَشْهَرُهُمْ: الحَسَنُ بْنُ زِيَادٍ اللُّؤْلُؤِيُّ، مِنْ فُقَهَاءِ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ النُّعْمَانِ.
- **وَالآخَرُ**: الـمَأْمُونُ؛ وَهُوَ لَقَبُ الخَلِيفَةِ العَبَّاسِيِّ عَبْدُ اللهِ بْنُ هَارُونَ القُرَشِيُّ الـمُطَّلِبِيُّ.

فَعُزِيَتْ إِلَىٰ هٰذَا، وعُزِيَتْ إِلَىٰ هٰذَا، وَلَمْ يُعْلَمْ قَائِلُهَا عَلَىٰ وَجْهِ التَّحْقِيقِ.

وَلِصحَّةِ معانيهَا، وَلَطَافَةِ مبانيهَا؛ تَلَقَّاها أهلُ العلمِ بالقَبولِ، فتَقَادَم ذِكْرُهمْ لهَا، وَأَقْدَمُ مَنْ ذَكَرَهَا - فيمَا يُعْلَم - هُوَ أَبُو عُمَرَ ابْنُ عَبْدِ البَرِّ فِي «جَامِعِ بَيَانِ العِلْمِ وَفَضْلِهِ»، وَعَدَّهَا أَحْسَنَ مَا قِيلَ فِي آدَابِ الطَّلَبِ.

وقولُه: (**وَنَصُّهَا الْمَجْلِيُّ لِلْعُيُونِ**) مَعَ مَا بَعدَهُ؛ يَدُلُّ علىٰ أنَّ هٰذِهِ الأبياتَ الأربعةَ الأُولَىٰ ليستْ منَ النَّظْمِ القديمِ الَّذي ذَكَره أبو عمرَ ابنُ عبد البرِّ وغيرُه؛ فَالأَبياتُ الأربعةُ الَّتي صُدِّرَتْ بِهَا المنظومةُ هي مِن نَظْمِي، ثمَّ خُتِمَت ببيتٍ جُعِل خَتْمًا لهَا.

فإنَّ العلم خَاصَّةً وَمَا يَنْفَعُ عَامَّةً إِذَا جُعِلَ بَيْنَ مُقَدِّمةٍ وَخَاتمةٍ بَانَ نَفْعُهُ، وَاعْتَبِرْ هٰذَا فِي إِنْزَالِ القُرْآنِ مُنَجَّمًا فِي سُوَرٍ - أَيْ مُفَرَّقًا فِي نَسَقِ سُوَرٍ -، كُلُّ سُورَةٍ لَهَا مَطْلَعٌ هُوَ فَاتِحَتُهَا، وَلَهَا مَقْطَعٌ هُوَ خَاتِمَتُهَا؛ فإنَّ الشَّيْءَ إِذَا جُمِعَ بَيْنَ طَرَفَيْنِ وُعِيَ وَأُدْرِكَ.

ومنهُ: الشِّعْر المُرسَلُ، فإنَّه إذَا أُحِيطَ بمَا يدلُّ عليهِ ويُرْشِدُ إليه كَمُلَت منفعتُه، فهو الَّذي حَدا جامعَ هٰذِهِ النُّبْذَةِ في هٰذِهِ الأوراقِ إلىٰ تَقديمِ أبياتٍ بينَ يَدَيْهَا وخَتْمِها ببيتٍ واحدٍ.

وسمَّىٰ ذَٰلِكَ كُلَّهُ: «**بَهْجَةَ الطُّلَب في آدابِ الطَّلب**».

وَالطُّلَبُ: جَمْعُ طُلْبَةٍ؛ وَهِيَ السَّفْرَةُ البَعِيدَةُ، فإنَّ منْ شعار العلمِ: الرِّحلَةُ فيهِ.

ومِن مباهجِ الارتحَالِ: التَّزَيُّنُ بالآدابِ، فمَنِ ارتحلَ في العلم مُتَزِّينًا بالأدبِ أدرك بُغْيَتَه.

وجَعَل النَّاظم هٰذَا الاسمَ لهَا مختومًا بقولِه: «**في آدابِ الطَّلب**»؛ لِأَنَّ آخِرَ شَطْرٍ منها هو قَوْلُ ناظمِها: (فَافْهَمْ هَدَاكَ اللهُ آدَابَ الطَّلَبْ).



قَالَ المُصَنِّفُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ٱعْلَـمْ بِـأَنَّ الْعِلْـمَ بِـالتَّعَلُّمِ وَالْحِفْـظِ وَالْإِتْقَـانِ وَالتَّفَهُّـمِ

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

من الأصول الـمُعِينةِ علىٰ حيازةِ العلمِ وجَمْعِهِ: التَّحلِّي بشِعارِ أهْلِ العلم في قولِهمْ: (العِلْمُ بِالتَّعلُّمِ)؛ أيْ بطَلَبِه وابتغائِه، فإنَّ أحَدَنَا لَا يُولَد عالمًا، وإنَّما يجمع العلمَ إلىٰ نفسِه بطَلَبِه وإحصائِه والتماسِه، وسَعْيُهُ في ذَٰلِكَ يُسَمَّىٰ (تَعَلُّمًا).

فَإِنَّ (**التَّفَعُّلَ**) **فِي كَلَامِ العَرَبِ**: اسْمٌ لِمَا يُبْذَلُ فِيهِ كُلْفَةٌ؛ كَـ(التَّعَلُّمِ، وَالتَّحَلُّمِ، وَالتَّكَلُّمِ)، فَإِنَّ الاتِّصاف بالعلمِ والحلمِ وحُسْنِ المنطقِ والكلامِ لا يَحصُل دُفْعةً واحدةً، وإنَّما يُكابِد المرءُ مشقَّةً حتَّىٰ يَصِلُ إِلَىٰ مَطْلُوبه منْ هٰذِهِ المذكوراتِ وغيرِهَا.

وَهٰذِهِ الجملةُ - (العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ) - رُوِيَتْ فِي حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا يَصِحُّ مِنْ طُرُقِهِ شَيْءٌ.

وَثَبَتَ مَوْقُوفًا عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَا يُولَدُ عَالِمًا، إِنَّمَا العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي كِتَابِ «الزُّهْدِ»، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

وَقول النَّاظِمِ: (وَالحِفْظِ وَالإِتْقَانِ وَالتَّفَهُّمِ)؛ مِنْ عَطْفِ الخاصِّ علىٰ العامِّ؛ فالمذكوراتُ مِنْ مسالِكِ التَّعلُّمِ، فَحِيَازة العلم وجَمْعُه تَحصُل بسلوكِ سُبُل مُوصِلةٍ إليهِ، من جُملَتِها: الحِفْظُ، والإتقانُ، والتَّفهُّمُ.

والمراد بـ(**الإِتْقَانِ**): الإِحْكَامُ، **ومُتَعلَّقُه** علىٰ الحقِيقةِ: التَّحَفُّظُ وَالتَّفَهُّمُ؛ بأن يكونَ الحفظُ مُتقنًا، والفَهم مُتقنًا، فمدارُ العلمِ عَلىٰ التَّحَفُّظِ وَالتَّفَهُّمِ.

فَإِنَّ قُوَّةَ العِلْمِ مَبْنِيَّةٌ عَلَىٰ أَصْلَيْنِ:

- **أحدهما**: الحِفْظُ.
- **والآخر**: الفَهْمُ.

ذَكَرَهُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ الحَفِيدُ، وَتُوجَدُ فِي كَلَامِ غَيْرِهِ مِنْ قُدَمَاءِ فَلَاسِفَةِ اليُونَانِ.

فمَنْ أراد أن يُحَصِّل العلم فإنَّه يَنالُه بالحرصِ علَىٰ حِفْظِ ما يريدُه منهُ حِفْظًا مُحكَمًا مُتقنًا، وَيَقْرِنُ ذَٰلِكَ بتَفَهُّمِ معانِيهِ، فإنَّه لا ينْبُلُ في العلمِ بالغًا الغايةَ منه إلَّا مَنِ ارْتَوَىٰ مِن هاتين السَّابِلَتَينِ أكملَ الارتواءِ وأقواهُ.

ومَنْ ظَنَّ أنَّه يَنالُ العلمَ بواحدةٍ مِن هاتينِ القُوَّتَينِ دُونَ الأُخْرَىٰ؛ فهوَ لَا يعرفُ حقيقةَ العلمِ.

ومَنْ لمْ يَسِرْ فيهمَا سَيْرَ أهلِ العلمِ مِنْ ملاحظةِ الحفظِ في زمَنِهِ ووقتِهِ، وملاحظةِ الفهمِ في زمنِهِ ووقتِهِ؛ أَضَرَّتْ إِحْدَىٰ القُوَّتَيْنِ بِالأُخْرَىٰ.

وَقَدْ ذَكَرَ الوَشَلِيُّ فِي «الثَّنَاءِ الحَسَنِ» عَنْ بَعْضِ شُرَّاحِ «الرَّحَبِيَّة» - وَلَمْ يُسَمِّهِ -: أَنَّ مَنْ لَمْ يَرْعَ الحِفْظَ وَالفَهْمَ كَمَا يَنْبَغِي؛ أَضَرَّتْ إِحْدَىٰ القُوَّتَيْنِ بِالأُخْرَىٰ.

وَهٰذَا أَمْرٌ ظاهرٌ فِي النَّاس.

فإنَّ مِنَ النَّاس مَنْ يشتغِلُ بالحفظِ في غيرِ أوانِه وزمانِه؛ تقديمًا وتأخيرًا، اختيارًا واصطفَاءً، فيحصلُ له حِفْظُ كثيرٍ، ويَثقُل فَهْمُه؛ لأنَّه لم يَقْرِنْهُ بالحال الَّتي ينبغِي أن يكونَ عليهَا منَ الفهمِ.

ويُقابلُه قومٌ آخَرُون يُقَعْقِعُونَ بِشَنْشِنَةِ الفهم فقط، فتجدُهم يُرسِلونَ خيالاتِهم في تَفَهُّمِ معانِي ما يريدونَ، فيُثقِلُونَ علَىٰ أذهانِهم؛ لأنَّهم لا يَستمِدُّون تحقيقَ تلكَ المعانِي من مخزونٍ محفوظٍ، فيقعونَ في صحراءَ بَلْقَع، يَضِيعُونَ فيها في تِيْهٍ.

فمَنْ أراد أن يَتَرَقَّىٰ في العلم، ويناله، ويحصلُ له ما ذَكَره جماعةٌ من السَّلف: (العِلْمُ

بِالتَّعَلُّمِ)؛ فإنَّه ينبغي أن يُلاحِظ الحفظ والفَهْمَ سَيْرًا فيهِمَا بجادَّةِ أهل العلمِ، ممَّا يُرَقِّيه فيه أهلُ العلمِ العارفُونَ بِهِ.

ولن تُبْلَغ الغايةُ إلَّا بالسَّير وَفْقَ هٰذِهِ السَّابِلَةِ، فلا تَتَعَنَّ.



قَالَ المُصَنِّفُ وَفَّقَهُ اللهُ:

وَالْعِلْـمُ قَـدْ يُرْزَقُـهُ الصَّـغِيرُ ... فِي سِـنِّهِ وَيُحْـرَمُ الْكَبِـيرُ

فَإِنَّمَـا الْمَـرْءُ بِأَصْـغَرَيْهِ ... لَـيْسَ بِرِجْلَيْـهِ وَلَا يَدَيْـهِ

لِسَـانِهِ وَقَلْبِـهِ الْمُرَكَّـبْ ... فِي صَـدْرِهِ وَذَاكَ خَلْـقٌ عَجَّـبْ

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

لـمَّا كان التَّعلُّم سبيلًا يُنال به العلمُ - كمَا ذَكَر النَّاظم فيمَا سلَفَ -؛ بَيَّن هنَا أنَّ العلمَ لَا يتوقَّف حصولُه علىٰ عُمُرٍ دونَ عُمُرٍ، فيُدركُه امرِئٌ فِي سِنٍّ، وَلا يُدركه آخَرُ في سِنٍّ أُخْرَىٰ، بلِ الأمرُ كمَا ذكَر فِي قولِهِ:

وَالْعِلْـمُ قَـدْ يُرْزَقُـهُ الصَّـغِيرُ ... فِي سِـنِّهِ وَيُحْـرَمُ الْكَبِـيرُ

فرُبَّما يُوَفَّق الصَّغير إلىٰ العلم ويُحْرَمه الكبيرُ، بحسَب مَا يتهيَّأُ لهُ من العَوْنِ عليهِ، فيترشَّح للعلمِ حِفْظًا وفَهْمًا معَ مبتدإِ عُمُرِهِ، ويحصُل له منَ الظَّفرِ بمحفوظٍ واسعٍ ومفهومٍ نافعٍ، فيرجعُ عليه ذَٰلِكَ بحُسْن رزقِهِ في العلْم.

وربَّما يقابلُهُ مَنْ هُوَ متقَدِّمٌ عليهِ في السِّنِّ، لٰكِنْ لَم يُصِبْ من العلم شيئًا؛ لتَرْكِه الاشتغالَ به، فتقدَّم الصَّغيرُ علَىٰ الكبيرُ؛ لاشتغالِ الصَّغيرِ بهِ فِي المبادئِ.

وإذا اشتغلَ الكبيرُ بالعلمِ فإنَّه يُمكنُه أن يُدركَهُ؛ إذا تَجرَّدَ منَ الشَّواغلِ والعوائقِ والقواطعِ.

قَالَ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «كِتَابِ العِلْمِ»: «وتَعَلَّمَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِبَارًا». انتهىٰ كلامه.

فالتَّقدُّمُ في السِّنِّ لا يمنع نَيْلَ العلم حِفْظًا ولا فَهْمًا، وَلٰكِنَّ أهلَ العلمِ لَهَجُوا بالمبادرةِ إِلَىٰ تحصيلِ العلم في مبتدإِ العُمُر؛ لِقِلَّةِ الشَّواغل، وقوَّة الدَّاعِي إلىٰ طَلب العلم في النَّفس.

فمَنْ تمكَّن من كبار السِّنِّ من تخليصِ نفسِهِ منَ القَوَاطِعِ المُشغِلَة، وَالعَوائقِ المانعةِ من العلمِ، وسَارَ فيه سَيْرًا حسنًا؛ فإنَّه يُدرك منه بُغيتَه.

ومَحلُّ العِلْمِ من العبد: قَلْبُهُ.

وآلَةُ بيانِ العلم: لسانُهُ.

فَالقَلْبُ وِعَاءُ العِلْمِ، وَاللِّسَانُ مِغْرَافٌ يَنْزِعُ منه.

ولِهَٰذَا قال النَّاظم:

فَإِنَّمَا الْمَرْءُ بِأَصْغَرَيْهِ ... لَيْسَ بِرِجْلَيْهِ وَلَا يَدَيْهِ

لِسَانِهِ وَقَلْبِهِ الْمُرَكَّبْ ... فِي صَدْرِهِ وَذَاكَ خَلْقٌ عَجَبْ

وسُمِّيَ القَلبُ واللِّسانُ: (الأَصْغَرَانِ)؛ لِضَآلَةِ حَجْمِهِمَا، وَصِغَرِ قَدْرِهِمَا مِنَ البَدَنِ، فَهُمَا بَضْعَتَانِ صَغِيرَتَانِ مِنْ بَدَنِ الإِنْسَانِ.

وقولُه: (الْمَرْءُ بِأَصْغَرَيْهِ)؛ مَثَلٌ سَيَّارٌ؛ مَعْنَاهُ: أَنَّ المَرْءَ يَعْلُو الأُمُورَ وَيَضْبِطُهَا بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ؛ ذَكَرَهُ الزَّبِيدِيُّ فِي «تَاجِ العَرُوسِ».

وقولُه: (وَذَاكَ خَلْقٌ عَجَبْ)؛ أيْ وقوعُ تلكَ الحالِ مِنَ الإنسانِ خَلْقٌ عَجِيبٌ، فالجُثَّةُ القائمةُ من لحمٍ وبَدَنٍ يَكمُلُ أَمْرُها أو ينقصُ قَدْرُهَا بِالنَّظرِ إلىٰ بَضعتينِ صَغيرتينِ مِنْهَا، وَهُمَا: القَلْبُ واللِّسَانُ، وَهٰذَا تَرْكِيبٌ عَجِيبٌ بَدِيعٌ.

فَإِنَّ الجَاري في حالِ الخَلْقِ: أن يكونَ الأكبَرُ مُتحكِّمًا في الأصغرِ، وقُلِبَ هٰذَا في خِلْقةِ أحدِنَا؛ فأَصْغَرَاهُ مُتحكِّمان فيه، فإنَّ تمامَ دينِ الإنسانِ، وكَمَالَ عقلِهِ، وحُسْنَ حالِهِ؛ يرجعانِ إِلَىٰ قلبِهِ ولسانِه، معَ ضَآلَةِ حجْمِهِمَا، وَصِغَرِ قَدْرِهِمَا.

وهٰذَا يدلُّ عَلَىٰ عظمة الخالقِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ إِذْ جعلَ الإنسانَ علىٰ هٰذِهِ الصُّورةِ البديعةِ العجيبةِ الَّتي رُدَّ فيهَا أَمْرُه كلُّه إِلَىٰ قلبِهِ ولسانِهِ.

وتحقيقُ الأمر: أنَّ المَرْءَ يُرَدُّ فِي بَاطِنِهِ وَظَاهِرِهِ إِلَىٰ قَلْبِهِ، وفيهِ: حديثُ النُّعْمَانْ بنِ بَشيرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**».

قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّة الحَفِيدُ: «القَلْبُ مَلِكُ البَدَنِ، وَالأَعْضَاءُ جُنُودُهُ، فَإِذَا طَابَ المَلِكُ طَابَتْ جُنُودُهُ، وَإِذَا خَبُثَ المَلِكُ خَبُثَتْ جُنُودُهُ».

وإنَّما جُعِل اللِّسان عليه حِجابًا، فَالقَلْبُ مَلِكُ بدنِك، ولسانُكَ حاجِبُه، فهوَ يغْرِفُ منهُ وَيَنْزَع عنه، فإذا طابَ المَلِكُ وكانَ صالحًا؛ فإنَّ الحَاجبَ - الوَزِيرَ دونَهُ - يَكونُ صَالحًا طيِّبًا، وَإِذَا خَبُثَ وفَسُد؛ ظَهَرَ الخُبْثُ والفَسَادُ علىٰ اللِّسان وبقيَّةِ الأركانِ.



قَالَ المُصَنِّفُ وَفَّقَهُ اللهُ:

وَالْعِلْـمُ بِـالْفَهْمِ وَبِالْمُـذَاكَرَهْ　　وَالدَّرْسِ وَالْفِكْـرَةِ وَالْمُنَـاظَرَهْ

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ذكر النَّاظِمُ فِي هٰذَا البيتِ خمسةَ مواردَ من الـمواردِ الَّتي تُوصِلُ العلمَ إلىٰ النَّفس، وتُذيقُ القلبَ حلاوتَه:

❁ **فَالـمَوْرِدُ الأَوَّلُ: الفَهْمُ**؛ وَهُوَ إِدْرَاكُ الـمَعَانِي الـمُرَادَة فِي الكَلَامِ.

وَالنَّافِعُ مِنَ الفَهْمِ: هُوَ الـمُتَلَقَّىٰ عَنِ الرَّاسِخِ فِي العِلْمِ.

فإنَّ مَنْ رَسَخ عِلمُه صارتِ الـمعانِي الَّتي يُبديها صحيحةً، فَانتَفَعَ بها مُتَلقِّيهَا، وَقَوِيَتْ مَلَكَةُ فَهْمِهِ.

وإِذَا كانَ مُزَعْزَعَ القَدَم في العلم، غيرَ مُتمَكِّنٍ منه؛ بَدَتْ تلكَ الـمعاني مُشوَّشةً، فتَلتبِسُ فِي نَفْس الـمتلَقِّي، وتُورِثُه عُسْر الفهمِ.

❁ **وَالـمَوْرِدُ الثَّانِي: الـمُذَاكَرَةُ**؛ وَهِيَ مُرَاجَعَةُ مُتَلَقِّي العِلْمِ عِلْمَهُ مَعَ آخَرَ.

سُمِّيت (مُذَاكَرَةً)؛ لِأَنَّـهَا مُفَاعَلَةٌ بِالذِّكْر بينَ اثْنَينِ فَصَاعِدًا، فيجلسُ أحدُهُمَا إِلَىٰ الآخرِ، ويتَجَاذَبَان القَوْلَ مُعِيدَيْنِ مَا سَبَقَ تَلَقِّيهِ عَنْ مُعَلِّمِهِمَا.

فاسْمُ (الـمُذَاكَرَةِ) في كلامِ العرب يقع بين اثْنَينِ فأكثرَ.

والدَّارِجُ عَلَىٰ ألسنةِ النَّاسِ مـمَّا يسمُّونَهُ (مُذَاكَرَةً)؛ اسمهُ (مُطَالَعَةٌ)؛ فَإِنَّ الَّذي ينظرُ فِي الكتبِ وحدَهُ يُسمَّىٰ (مُطَالِعًا)، سواءً كان مُتَحفِّظًا أم مُتفهِّمًا، واسم (الـمُذَاكَرَةِ) لا يكونُ إلَّا بين اثْنَينِ فَصَاعِدًا يتجاذَبَانِ ذِكْرَ العلمِ بينهمَا.

وَالنَّافِعُ مِنَ الـمُذَاكَرَةِ: هِيَ الوَاقِعَةُ مَعَ القَرِينِ الجَادِّ، الطَّامِحِ إِلَىٰ مَعَالِي الأُمُورِ.

وَالـمَوْرِدُ الثَّالِثُ: الدَّرْسُ؛ وَهُوَ تَكْرَارُ العِلْمِ علَىٰ النَّفْسِ، وَإِعَادَتُهُ عَلَيْهَا.

فإنَّ اسمَ (الدَّرْسِ) مأخوذٌ من العَوْدِ والتَّكْرَارِ، فإعادةُ العلم بعدَ حِفْظِه أو بعدَ فَهْمه يُسمَّىٰ (دَرْسًا).

فمَنْ جَلَسَ بَعْدَ الفجرِ فحَفِظَ هٰذِهِ الأبيات حتَّىٰ أحْكَمَهَا، فلمَّا أرسَلَ اللَّيْلُ سِتَارَهُ، وبَزَغَتِ النُّجُومُ، وهَدَأَ صوتُ النَّاسِ؛ قَامَ فأخَذَ يُكرِّر هٰذِهِ الأبيات = ففِعْلُهُ يُسمَّىٰ (دَرْسًا).

وَكَذَا لَوْ كَان مُتعلِّقًا بمَفهومٍ تلقَّاه؛ كَأَنْ يكون قَرَأَ ذَٰلِكَ الـمَحفوظَ عَلَىٰ شَيخٍ بَيَّنَ له معانيه، ثمَّ رجَع إلىٰ دارِه، فَإِنَّه إذا أعاد تَذَكُّرَ تلك الـمعاني الَّتي تلقَّاها وأَمَرَّها علىٰ نَفْسِه، يُسمَّىٰ هٰذَا (دَرْسًا).

والنَّافِعُ مِنَ الدَّرْسِ: هُوَ الكَائِنُ فِي وَقْتِ النَّشَاطِ وَالقُوَّةِ.

فمَنْ أرادَ أن ينتفعَ بدَرْسِه مُعيدًا له، فإنَّه ينبغي أن يتخيَّر أوقاتَ نَشَاطه وقوَّتِهِ.

وَالـمَوْرِدُ الرَّابِعُ: الفِكْرَةُ؛ وَهِي تَحْقِيقُ النَّظَرِ فِيمَا يُبْتَغَىٰ مِنَ العِلْمِ، بِإِمْرَارِهِ عَلَىٰ القَلْبِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، وَاسْتِخْرَاجِ مَا تَحْتَ الـمَبْنَىٰ مِنَ الـمَعْنَىٰ.

فإنَّ مَبَانِي الكَلَامِ خَزَائِنُ الـمَعَانِي؛ فتحقيقُ النَّظَر فيهَا وإجالتُه تُسمَّىٰ (فِكْرًا)، بأنْ تَتطلَّب الوصولَ إِلَىٰ مقصودٍ تُقَلِّب نَظَرك فيه حتَّىٰ تُدرِك معنًىٰ تلتمسُهُ فيما تُطلِق الفِكْرَ فيه.

والنَّافِعُ مِنَ الفِكْرِ فِي العِلْمِ: هُوَ مَا تَحَرَّكَ بِهِ الذِّهْنُ بَعْدَ تَمَامِ الفَهْمِ وَاكْتِمَالِ آلَةِ العِلْمِ.

فَالفِكْرُ في العلمِ للوصولِ إلىٰ الـمعانِي الشَّريفةِ مَحَلُّه فيما يُستَقْبَل منْ عُمُر مُتَلقِّيه، فلَا يَحسُنُ الهُجُوم عليه في الـمَبَادِي، أو عند الـمتوسِّطينَ، أو عندَ الـمنتهينَ قبلَ

امتلائِهِمْ منَ العلمِ، فإنَّ الفِكْرَ في العلمِ لا تَحْصُل منفعتُه إلَّا بعدَ تمَام فَهْم معانِيهِ، فإذَا تَمَّ فَهْمُ المَعَانِي، ثمَّ اكتملتْ آلة العلمِ مِن تَلَقِّي فنونِه؛ كانَ فِكْرُ المرءِ فيه حينئذٍ كمَالًا يُورِث كمالًا، وَإن كان قبل ذَٰلِكَ كان خَبَالًا يُورِث خَبَالًا.

فمُلتمسُ العلمِ لا ينبغِي له أن يُجهِدَ ذِهْنَه بالفِكْرِ في الوصولِ إلىٰ المعانِي قبلَ تَمَامِ فَهْمِهِ واكتمَالِ آلتِهِ، لأَنَّه يُشغِلُ نَفْسَه بمَا يَشُقُّ عليهَا؛ كَمَنْ يحمِل ثِقَلًا لَا يَقدِرُ بَدَنُه عَلَىٰ رَفْعِه.

وَربَّمَا أورَدَهُ المَهَالِكَ، فهو يُجرِي خاطِرَهُ مُنقدحًا في أمورٍ لَا يَعي تمامَهَا.

فإنَّ ممَّا يسمعُهُ المرءُ فِي تعليلِ الأَحَاديثِ - مَثَلًا - أشياءَ فَكَّر فيهَا المتكلِّمون بها، فأرسلُوهَا علىٰ عَوَاهِنِهَا قَبْلَ تمام الفهمِ واكتمال آلةِ العلمِ، فصَارَ تَعليلُهم ضِحْكَةً عِندَ العارفين بالعلمِ.

فإنِّي سمعتُ رَجُلًا يُعَلِّل حديثًا فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِأُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**أَنَفِسْتِ؟**» - لَـمَّا انْسَلَّتْ مِنْ فِرَاشِهِ -، فَقَالَ: هٰذَا الحَدِيثُ لَهُ عِلَّةٌ، وَهِيَ أَنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ لَمْ تَضَعْ إِحَدَاهُنَّ مَوْلُودًا، وَالنِّفَاسُ دَمٌ يَكُونُ بَعْدَ وِلَادَةٍ.

وَهٰذَا المَعْنَىٰ الَّذِي عَلَّلَ بِهِ مَعْنًىٰ سَاقِطٌ؛ لِأَنَّ أَصْلَ (النِّفَاسِ): حُصُولُ التَّنْفِيسِ، وَهُوَ لِلْمَرْأَةِ بِدَمٍ، فَيُسَمَّىٰ الحَيْضُ أَيْضًا (نِفَاسًا)، وَهُوَ الَّذِي أَرَادَهُ النَّبِيَّ ﷺ بِقَوْلِهِ: «**أَنَفِسْتِ؟**».

وَهٰذَا الأمرُ الَّذي ذَكَرتُ خطورتَه صارَ شائعًا في النَّاس فِيما فُتِنُوا بهِ من دَعْوَىٰ سهولَةِ الوُصُولِ إلىٰ المعلومةِ؛ فظنُّوا أنَّ سهولَةَ الوُصُولِ إلىٰ المعلومةِ تُورِثُهُم قُدرةً علىٰ نُفُوذِ أفكارِهِم في معانِي العلم، وأنَّهم يُدرِكُونَ من حقائِقِه أشياءَ تجْري بِهَا خَوَاطِرُهُمْ؛ كالمسموعِ اليومَ في كثيرٍ ممَّا يُنْسَبُ إِلَىٰ تَدَبُّرِ القرآن، فإنَّه محضُ جَرَيَان الخَوَاطِرِ،

وربَّما اشتَمَلَ عَلَىٰ مَعَانٍ فَاسِدَةٍ فِي الشَّرِيعةِ.

والـمَقْصُودُ: أنَّ مُريدَ النَّجاة عند الله، الرَّاغبَ في حصولِ كمالِ العلمِ؛ ينبغِي أن يعرفَ أنَّ الفِكْرَ في العلم مَرتبةٌ تُدرَكُ بَعْدَ تَمامِ الفَهْمِ وَاكْتِمَالِ آلَةِ العِلْمِ.

۞ **وَالـمَوْرِدُ الخَامِسُ**: **الـمُنَاظَرَةُ**؛ وَهِيَ البَحْثُ فِي العِلْمِ مَعَ غَيْرِهِ؛ لِنُصْرَةِ قَوْلٍ دُونَ آخَرَ، وَإِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَيْهِ.

وَالنَّافِعُ مِنَ الْمُنَاظَرَةِ: مَا كَانَ مَعَ ذِي عِلْمٍ لِإِرَادَةِ الحَقِّ.

فَالـمُنَاظَرَةُ النَّافِعَةُ تَجْمَعُ وَصْفَيْنِ:

۞ **أَحَدُهُمَا**: وُقُوعُهَا بَيْنَ مُتَّصِفَيْنِ بِالعِلْمِ الكَامِلِ؛ إِمَّا فِي نَفْسَيْهِمَا، وَإِمَّا فِي تِلْكَ الـمَسْأَلَةِ بِعَيْنِهَا.

۞ **وَالآخَرُ**: أَنْ يَكُونَ مُرَادُ كُلٍّ مِنْهُمَا الوُصُولُ إِلَىٰ الحَقِّ.



قَالَ المُصَنِّفُ وَفَّقَهُ اللهُ:

فَـرُبَّ إِنْسَـانٍ يَنَـالُ الْحِفْظَـا ... ويُـورِدُ النَّـصَّ وَيَحْـكِي اللَّفْظَـا

وَمَـا لَهُ فِي غَـيْرِهِ نَصِـيبُ ... مِمَّـا حَـوَاهُ الْعَـالِمُ الْأَدِيـبُ

وَرُبَّ ذِي حِرْصٍ شَـدِيدِ الْحُـبِّ ... لِلْعِلْـمِ وَالذِّكْـرِ بَلِيـدِ الْقَلْـبِ

مُعَجَّـزٍ فِي الْحِفْـظِ وَالرِّوَايَـهْ ... لَيْسَـتْ لَهُ عَمَّـنْ رَوَى حِكَايَـهْ

وَآخَـرٌ يُعْطَـى بِـلَا ٱجْتِهَـادِ ... حِفْظًا لِمَـا قَـدْ جَـاءَ فِي الْإِسْـنَادِ

يُفِيـدُهُ بِالْقَلْـبِ لَا بِنَـاظِرِهْ ... لَـيْسَ بِمُضْـطَرٍّ إِلَى قَمَـاطِرِهْ

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ذكر النَّاظِمُ في هٰذِهِ الأبياتِ أنَّ النَّاس يتفاوتُونَ في حُظوظِهِمْ مِن الحفظِ والفَهْمِ الَّذي ينالونَ بِهِ العلمَ.

فتَجِدُ فيهمْ مَنْ تكون له أهليَّةٌ في الفهم وقُدرةٌ عليه، فهو واعيةٌ دَرَّاكٌ للمعانِي.

وتجد منهمْ مَنْ يتقَاصَرُ عن هٰذِهِ الرُّتبَةِ من الفهمِ، فَمَا لَهُ فيه كبيرُ نصيبٍ، وَإن كانَ له حظٌّ من الحفظِ.

وأشار النَّاظم إلىٰ الثَّاني منهمَا بقوله:

فَـرُبَّ إِنْسَـانٍ يَنَـالُ الْحِفْظَـا ... ويُـورِدُ النَّـصَّ وَيَحْـكِي اللَّفْظَـا

وَمَـا لَهُ فِي غَـيْرِهِ نَصِـيبُ ... مِمَّـا حَـوَاهُ الْعَـالِمُ الْأَدِيـبُ

فالـمذكورُ في هٰذَيْنِ البيتينِ بالنِّسبة إلىٰ قوَّة الفهم هو ضعيفٌ لا يُعَدُّ من أربابِها.

وعُرِف مُقابِله بحالِه؛ فإنَّه إذا كانَ في النَّاس مَنْ يضْعُف فَهْمُه، فمُقابِلُه منهمْ: مَنْ

يقوىٰ فَهْمُه.

وتجدُ فيهم أيضًا بالنِّسبة للحفظِ مَنْ يكونُ ضعيفَ الحفظِ مع محبَّتِه العلمَ ورغبتِه فيه.

وتجدُ منهمْ مَنْ هو قَوِيُّ الحفظِ، مُتمكِّنٌ منه، سهلٌ عليه.

فالنَّاس متفاوتون في الحفظِ والفهمِ علىٰ درجاتٍ ومَرَاتبَ مُتباينَةٍ.

وأشار النَّاظم إلىٰ مَرَاتبِ النَّاس في الحفظِ في قولِه:

وَرُبَّ ذِي حِرْصٍ شَدِيدِ الْحُبِّ ... لِلْعِلْمِ وَالذِّكْرِ بَلِيدِ الْقَلْبِ
مُعَجَّزٍ فِي الْحِفْظِ وَالرِّوَايَهْ ... لَيْسَتْ لَهُ عَمَّنْ رَوَى حِكَايَهْ
وَآخَرٌ يُعْطَى بِلَا ٱجْتِهَادِ ... حِفْظًا لِمَا قَدْ جَاءَ فِي الْإِسْنَادِ
يُفِيدُهُ بِالْقَلْبِ لَا بِنَاظِرِهْ ... لَيْسَ بِمُضْطَرٍّ إِلَى قَمَاطِرِهْ

فالأوَّل: كَليلُ الحفظِ ضَعِيفُه.

والثَّاني: قَوِيُّ الحفظِ حتَّىٰ تَتمكَّن الـمحفوظاتُ في قلبه دونَ كبيرِ اجتهادٍ منه.

ومنهُ: حالُ عَبْدِ اللهِ بْنِ الـمُبَارَكِ؛ فَإِنَّهُ سُئِلَ: كَيْفَ تَحْفَظُ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟، فَقَالَ: «إِنَّمَا هُوَ إِذَا اشْتَهَيْتُ شَيْئًا حَفِظْتُهُ»؛ أيْ إذا وُجِد في قلبي محبَّةٌ ورغبةٌ له، وَجَدَ طريقًا إلىٰ قلبِي، فتَمَكَّن منه ورَسَخ فيه، فصار عِلمُه حاضِرًا بقلبه، فهو لا يحتاجُ إلىٰ النَّظر في الكتبِ الـمُشارِ إليها بقولِه: (لَيْسَ بِمُضْطَرٍّ إِلَى قَمَاطِرِهْ).

والقَمَاطِرُ: جَمْعُ قِمَطْرٍ؛ وَهُوَ وِعَاءٌ تُحْفَظُ فِيهِ الكُتُبُ، بِمَنْزِلَةِ الحَقِيبَةِ فِي وَقْتِنَا.

فالحافظُ الـمتمكِّن غيرُ مُفْتَقِرٍ إلىٰ الكتُبِ الـموضوعَةِ في القَمَاطِرِ.

وكان الخليل بنُ أحمدَ يُنشِد بيتًا سَيَّارًا:

وَلَيْسَ عِلْمًا مَا حَوَىٰ القِمَطْرُ ... مَا العِلْمُ إِلَّا مَا حَوَاهُ الصَّدْرُ

قَالَ المُصَنِّفُ وَفَّقَهُ اللهُ:

فَالْتَمِسِ الْعِلْمَ وَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبْ   وَالْعِلْـمُ لَا يَحْصُـلُ إِلَّا بِـالْأَدَبْ

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

لـمَّا بَيَّن النَّاظِمُ أنَّ العلم بالتَّعلُّم، ثـمَّ أتبَعَه بذِكْر خـمسةِ مواردَ يُـحَصَّل بِها العلمُ؛ أرشدَ إلىٰ ما تَنبَغِي ملاحظتُه في طَلَبِ العلم، فقَالَ: (فَالْتَمِسِ الْعِلْمَ وَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبْ)؛ أيِ ابتغِ العلمَ وَاحْرِص علَىٰ تحصيلِه، سالكًا ما يجمُلُ منَ الطُّرق المُوصِلَةِ إليهِ.

فقوله: (وَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبْ)؛ معناه: اسْلُكْ فيه طريقًا جميلًا حسنًا، بأنْ تَأْتيَه من وجهِهِ الَّذي يُؤْخَذ منهُ.

وقد تقدَّم فِي «تَعْظِيمِ العِلْمِ» وَ«خُلَاصَتِهِ» وَغيرِهِمَا بيانُ كثيرٍ مِنَ القولِ الـمتعلِّقِ بمَا يَجْمُل فِي طريقِ أَخْذ العلم، فمَنْ سلَكَها كَان أَخْذُه جَميلًا، ومَنْ عَدَل عنهَا إلىٰ غيرِهَا أَضَـرَّ بنفسِهِ فِي العلمِ؛ لغَلَطِهِ فِي سلوك طريقِه.

ثـمَّ ذَكَـر أنَّ مِـن مفاتيحِ حِيازةِ العلـمِ: سلوكَ الأدَبِ، والتزامَ مُقتَضَاه؛ فِي الـنَّفْس والدَّرس، ومعَ الشَّيخ والزَّميل، فقال: (وَالعِلْمُ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِـالْأَدَبْ)، وَهُوَ فِي مَعنىٰ قولِ يُوسُفَ ابْنِ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بِالأَدَبِ تَفْهَمُ العِلْمَ». رَوَاهُ الخَطِيبُ البَغْدَادِيُّ فِي «اقْتِضَاءِ العِلْمِ العَمَلَ».

وَالجُمْلَةُ الـمَذْكُورَةُ لَهَا مُتَعَلَّقَانِ:

- أَحَدُهُمَا: الهِبَةُ الإِلٰهِيَّةُ.
- وَالآخَرُ: الـمِنْحَةُ البَشَرِيَّةُ.

فَأَمَّا **الهِبَةُ الإِلٰهِيَّةُ**: فإنَّ اللهَ يَهَبُ العِلْمَ لمَنْ كَانَ مُتَأَدِّبًا، فَإِنَّ العِلْمَ ميرَاثُ النُّبُوَّةِ، وَإِنَّ اللهَ لَا يَجْعَلُ مِنْ أَنْوَارِ النُّبُوَّةِ فِي قُلُوبِ قَلِيلِي الأَدَبِ، ولو قُدِّرَ وجودُ شيءٍ من العلمِ عندَ قليلِ أدبٍ، فهوَ ليسَ العلمَ الممدوحَ شرعًا.

فالعلمُ الممدوحُ شرعًا: هو النَّافع، المُقَرِّب إلىٰ اللهِ، الحاملُ للعبد علىٰ التزام شريعتِهِ.

وأمَّا المِنْحَةُ البَشَرِيَّةُ: فَإِنَّ المُعَلِّمِينَ يَتَعَاهَدُونَ المُتَأَدِّبِينَ؛ فَهُوَ يَبْذُلُ عِلْمَهُ لِلْمُؤَدَّبِ، وَيَمْنَعُ قَلِيلَ الأَدَبِ مِنْهُ.

فَإِنَّ العَاقل مِنَ المُعَلِّمِينَ يعلم أنَّ العلمَ خزانَةٌ، وأنَّه أمينٌ عليهَا، فمِنْ صِدْقِ الأمانةِ أنْ يتحرَّىٰ مَنْ له حقٌّ فِي تِلْكَ الخِزَانَةِ، ولا حقَّ في العلم إلَّا لمَنْ تأدَّب بآدابِه.

فإنَّ الَّذين لا يتأدَّبون بآدابِ العلمِ معَ اللهِ، ومعَ رسولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع أئمَّة أهلِ العلمِ، ومع شيوخِهِم، ومعَ أقرانِهم، ومعَ مجالسِ العلمِ وأهلِه؛ ليسَ لهم حقٌّ في تلكَ الخزانةِ؛ فإنَّ تلكَ الخزانَةَ فيها العلمُ الموروثُ عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأمينُ الصَّادقُ لا يجعلُ تلكَ الجواهِرَ واللَّآلِئَ إلَّا عندَ مَنْ لَهُ حقٌّ فيها.

وأولئكَ الَّذين لهم حقٌّ: همُ الملتزمونَ بشروطِهَا من الآدابِ الشَّرعيَّةِ، والأحكام المَرْعِيَّةِ، فإذا وُجِدَت فيهمْ كَانَ حقيقًا بحامِلِ العلمِ أن يبذلَهُ لهُم، وإذَا سُلِبَتْ منهُم كانَ حقيقًا بصاحبِ العلم أن يمنعَه منهُم.

وَاعْتَبِر هٰذَا فِي أخبارِ مِن أحوالِ مَنْ مضَىٰ؛ فإنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي حَاتِمٍ وَأَصْحَابَهُ لَمَّا قَصَدُوا مِصْرَ لِسَمَاعِ الحَدِيثِ عَلَىٰ الشُّيُوخِ، وَضَاقَ بِهِمْ زَمَنُهُمْ عَنِ السَّمَاعِ عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْلَمَةَ بْنِ قَعْنَبٍ القَعْنَبِيِّ؛ كَانَ يَأْتِيهِمْ بَعْدَ العِشَاءِ، فَيَقْرَأُ عَلَيْهِمْ كِتَابَ «المُوَطَّأ» الَّذِي يَرْوِيهِ عَنِ الإِمَامِ مَالِكٍ؛ لِأَنَّهُ رَآهُمْ أَهْلَ أَدَبٍ، يَتَحَرَّوْنَ العِلْمَ

وَيَلْتَزِمُونَ شُرُوطَهُ، فَحَمَلَ عَلَىٰ نَفْسِهِ فِي حَمْلِ العِلْمِ إِلَيْهِمِ؛ لِأَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَهُ وَهُمْ مِنْ أَهْلِهِ.

وَفِي أَخْبَارِ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ؛ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «إِنِّي لَأَحْرِمُ الرَّجُلَ الفَائِدَةَ لِمَا أَرَىٰ مِنْ حَالِ جَلِيسِهِ»، فَهو يلاحظ أنَّ ملتمسَ العلم له صُحبةٌ لا تصلُحُ فيهِ، فيمنَعُه العلمَ؛ لأنَّه يخافُ أن تُفسدَه تلكَ الصُّحبةُ فيُجعَلُ العلمُ عندَ مَنْ لَا يستحقُّهُ.



قَالَ المُصَنِّفُ وَفَّقَهُ اللهُ:

الْأَدَبُ النَّافِعُ حُسْنُ الصَّمْتِ ... فِي كَثِيرِ الْقَوْلِ بَعْضُ الْمَقْتِ
فَكُنْ لِحُسْنِ الصَّمْتِ مَا حَيِيتَا ... مُقَارِنًا تُحْمَدُ مَا بَقِيتَا

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

لَمَّا قرَّرَ النَّاظِمُ أنَّ العلم لا يحصلُ إلَّا بالأدبِ؛ شَرَعَ يذكُرُ أنواعًا مِنَ الأدبِ ووجوهًا منه، مُقَدِّمًا (حُسْن الصَّمْتِ)؛ أيْ الصَّمتَ الحَسَنَ، بالإمساكِ عمَّا لا يُحتَاجُ إليهِ من الكلامِ.

ويتأكَّد الصَّمت إذا تحقَّقت مَضَرَّةُ الكلامِ، أو لم تتبيَّنْ منفعتُه ولا مَضَرَّتُه.

فَالكَلَامُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

- **أَحَدُهَا**: كَلَامٌ بَيِّنُ الـمَنْفَعَةِ.
- **وَثَانِيهَا**: كَلَامٌ بَيِّنُ الـمَضَرَّةِ.
- **وَثَالِثُهَا**: كَلَامٌ لَمْ يَتَبَيَّنْ نَفْعُهُ مِنْ ضَرَرِهِ.

والعبدُ مأمورٌ في القسميْنِ الأخيرينِ بِالصَّمتِ؛ لِمَا في «الصَّحيحينِ» مِن حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أَنَّ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ؛ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»؛ فالكلامُ الـمأمورُ به هو مَا كانَ خيرًا - أي بَيِّنَ الـمنفعة -، وَمَا عَدَاه - ممَّا يكون بَيِّنَ الـمضرَّةِ، أو لم تتحقَّق منفعتُه من مضرَّتِهِ - فَإِنَّ العَبْدَ مأمورٌ بالإمساكِ عنه، وأن يَخْزِنَ لسانَه ويحفظَهُ، مُمتثلًا ما أرشدَ إليه النَّاظم بقوله:

فَكُنْ لِحُسْنِ الصَّمْتِ مَا حَيِيتَا ... مُقَارِنًا تُحْمَدُ مَا بَقِيتَا

أيْ كُن خازنًا لِلَسَانك، حافظًا له، مُمسِكًا عمَّا لا خيرَ فيهِ من الكلَامِ، فإنَّك تَحْمدُ عاقبة ذَٰلِكَ فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ، ويَبقَىٰ ذِكْرُكَ بِالخيرِ في الحياةِ وفِي المَمَاتِ مَا بقيَ خَبرُكَ.

وَهٰذَا الأمْرُ هو مِنْ أكثَرِ مواردِ العَطَبِ الَّتِي تَفسُدُ بِهَا أحوالَ الخلقِ، إذا أرسلُوا أَلسِنَتُهُم فِي ما لا ينفعُهُم، أوْ في ما هو بَيِّنُ الضَّرَرِ، أو ممَّا لَا يَتَبيَّنُ نَفْعُه منْ ضَررِه؛ فإنَّ هٰذَا يرجع عَليهم بفسادِ قلوبهم.

وقد ذكَرَ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في غيرِ كتابٍ أبوابًا من مُفسِدات القلوبِ، فَلَهَج بواحدٍ منهَا وَهُوَ (كَثرة الكلَام)، فإنَّ مَنْ كَثُرَ كلامُه كَثُرَ خطؤُه، فوقَعَ فِيما يضرُّ، أو وَقَعَ فيما لا يتبيَّن منفعتُه من ضرَرِه، فيرجعُ ذَٰلِكَ عليْهِ بفسَادِ قلبِهِ.

وحَبْسُ اللِّسانِ وخَزْنُه من الرِّياضَاتِ النَّافِعَةِ فِي تهذيبِ النَّفْسِ وَإِصْلَاح الأخلاقِ، فينبغي أن يُعَوِّد أحدُنَا نَفْسَه خَزْنَ لسانِه؛ بأن يتقلَّلَ من الكلَامِ، وإذَا جَلَسَ في موضعٍ فيهِ غيرُه مِمَّنْ هو أكبرُ منه؛ أمسَكَ ولم يتكلَّمْ، وإن كانَ يُشَارُ إليهِ بالعلمِ أكثرَ منهُ، ممَّنْ هو في أقرانِه، فإنَّ رعَايةَ هٰذَا ممَّا ينتَفِع بهِ العبدُ في صلَاحِ قلبِهِ وحُسْنِ دينِه.

وإذا كَثُرَ هَذْرُ المرْءِ وجَرَيَانُ لِسَانِهِ بين النَّاس، وقعَ في أشياءَ تُفسِدُ دينَه ودنيَاهُ.

وفِي أَخْبارِ مُوَرِّقٍ العِجْلِيِّ أَنَّهُ قَالَ: «جَاهَدْتُ نَفْسِي عَشْرَ سِنِينَ فِي تَعَلُّمِ الصَّمْتِ».

انتهىٰ كلامه.

ووجْهُ المُجَاهَدَةِ: أنَّهُ توجدُ عندَه شَهْوَةُ الكَلَامِ، فَيَحْبِسُ لسانَه.

فإذا أردتَ أن ترتَاضَ رياضَة حِفْظ اللِّسان، فاعقلْ هٰذَا المعنىٰ، فإذَا اشتاقت نفسُكَ للكلامِ، وارتفعتْ إليكَ الأبصارُ، وأشارتْ إليكَ الأصابعُ؛ فأَلْجِمْ لسَانَكَ مَا استطعتَ، إمَّا بالإمساكِ عنِ الكلامِ تارةً، أو بالتَّقلُّلِ منه تارةً أخرَىٰ، فإذا أُلْجِئْتَ إلَىٰ الحَديث فأَقِلَّ

الكلامَ، فإنَّ قِلَّة الكَلَام يكثُرُ بِهَا دينُ المرء وعقله، كمَا أنَّ كثرةَ الكلَامِ يَضْعفُ بها دينُ المرء وعقلُه.

وَاعْتَبِر هٰذَا في أحوالِ النَّاس تجدْ صِدْقَهُ.



قَالَ المُصَنِّفُ وَفَّقَهُ اللهُ:

وَإِنْ بَـدَتْ بَـيْنَ أُنَـاسٍ مَسْـأَلَهْ ... مَعْرُوفَـةٌ فِي الْعِلْـمِ أَوْ مُفْتَعَلَـهْ
فَلَا تَكُـنْ إِلَى الْجَوَابِ سَابِقَا ... حَـتَّى تَـرَى غَـيْرَكَ فِيـهِ نَاطِقَـا
فَكَمْ رَأَيْتُ مِنْ عَجُـولٍ سَـابِقِ ... مِـنْ غَـيْرِ فَهْـمٍ بِالْخَطَـاءِ نَـاطِقِ
أَزْرَى بِـهِ ذَلِـكَ فِي الْمَجَـالِسِ ... بَـيْنَ ذَوِي الْأَلْبَـابِ وَالتَّنَـافُسِ
الصَّمْتُ فَاعْلَمْ بِكَ حَقًّـا أَزْيَـنُ ... إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ عِلْـمٌ مُـتْقَنُ

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ذَكَرَ النَّاظِمُ أنَّ من مواردِ **الصَّمتِ الحَسَن**: الإمساكَ عن الكلامِ فِيمَا يجري ذِكْرُه من مسائلِ العلمِ، ممَّا شُهِرَ منهُ في المسائلِ المقرَّرَةِ الحاصِلَةِ، أو فِي المسائلِ المتجدِّدةِ النَّازِلَةِ.

فإنَّ الصَّمتَ الحَسَنَ: أن يُمسكَ المرءُ عن الجوابِ فيه حتَّىٰ يرىٰ غيرَه ممَّنْ هُم أكملُ عِلمًا، وأكبرُ سِنًّا، وأتمُّ عَقْلًا قد تكلَّموا فيه، فيتكلَّمُ حينئذٍ بمثلِ كَلَامِهِم، ويُحاذي مقالَهُم، ويبني علىٰ أصولِهِم، ويُوَسِّع النَّظر فيما قرَّرُوهُ.

فمِنْ حُسن صمْتِ أحدِنا: ألَّا يزاحم أهلَ العلمِ القائمينَ بِهِ فِي ما هُمْ به أَوْلَىٰ.

وإذا أرادَ أن يتكلَّمَ لم يتقدَّمْ بين أيديهم، فإذَا تكلَّمُوا وكَانَ قَدْ زَوَّر في نفسِه أن يتكلَّمَ بمثلِ كلَامِهِمْ تكلَّمَ حِينئذٍ بعدَ كَلَامهمْ، وإنْ زَوَّرَ في نفسِه خلافَ كلامِهِم أمسَكَ حينئذٍ عن الكلامِ؛ فإنَّه خيرٌ لَهُ في دينِه وعقلِه.

فلو قُدِّرَ أنَّ أَمْرًا منَ الأمورِ جَرَىٰ بين النَّاس، فَالْزَمِ الصَّمتَ الحَسَنَ؛ وإن كانَ النَّاسُ

ينتظرونَ منكَ كلمةً.

فإذَا تَقَدَّمَ بينَ يديْكَ أَحَدٌ فتكَلَّمَ واحتِيجَ إلىٰ كلامِكَ - نُصْرةً للحقِّ وتقويةً لهُ وكنتَ تريدُ الكلامَ بمثلِ ما تكلَّم به -، فتكلَّم بعدَهُ.

وإن عَرَضَ لكَ من المعَانِي مَا تَرَىٰ به أنَّ الرَّاجح عندكَ هو خلافُ ما قَرَّره وكانَ هو منَ المَأْمُونينَ في العلمِ، المنظورِ إليهِمْ عندَ الخَلْق؛ فلا تُزاحمْه، وَالْزَم ما عندَكَ من العلمِ، حتَّىٰ إذا احتيجَ إليكَ فَحِينئذٍ قُمْ في هٰذَا المقَامِ.

فإنَّ مَنْ رَعَىٰ هٰذَا الأدَبَ منَ العلمِ في نَفْسِه؛ حَفِظَ دينَه وعقلَه، ومَنْ زَاحَم أَهْلَ العلمِ؛ أَزْرَىٰ علىٰ دينِه وعقلِه.

وَذكَر النَّاظِمُ منْ مَزَالقِ العَجَلَة في العلمِ والمسابقَةِ بالقولِ فيه: الوقوعَ في الخطإِ الَّذي يُزرِي بصاحبِه عندَ المتنَافِسِينَ في معالِي الأمورِ، فإنَّ المُسارعَةَ والمُسابقَةَ إلىٰ القولِ تَجُرُّ إِلَىٰ الوقوعِ فِي الخطَإِ، فيكونُ ذَٰلِكَ رَزِيَّةً تعيبُ المتكلِّم بِهَا.

وإذا كانتِ الحالُ كذَٰلكَ؛ فالأمرُ النَّافع سلوكُه هو المذكورُ في قولِ المصنِّف:

الصَّمْتُ فَاعْلَمْ بِكَ حَقًّا أَزْيَنُ ... إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ عِلْمٌ مُتْقَنُ

فالصَّمتُ عندَ بُدُوِّ القولِ في مسائِلِ العلمِ أَزْيَنُ بأهلِهِ إن لم يكنْ عندَ المتكلِّمِ علمٌ مُتقَنٌ - أيْ علمٌ رَاسِخٌ.



قَالَ المُصَنِّفُ وَفَّقَهُ اللهُ:

وَقُــلْ إِذَا أَعْيَــاكَ ذَاكَ الْأَمْــرُ ... مَــا لِي بِمَــا تَسْــأَلُ عَنْــهُ خُــبْرُ
فَذَاكَ شَطْرُ الْعِلْمِ عِنْـدَ الْعُلَمَـا ... كَذَاكَ مَا زَالَـتْ تَقُـولُ الْحُكَمَـا

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ذكر النَّاظِمُ الجوابَ النَّافعَ فِي المسائلِ الَّتي يَعْزُبُ عِلم أحدِنَا عنهَا، وَهُوَ قولُ (لَا أَدْرِي)، المُشَارُ إليه بقولِه: (مَا لِي بِمَا تَسْأَلُ عَنْهُ خُبْرُ).

فإذا سُئِل المرءُ عن شيءٍ لا يعلمُه، كانَ الجوابُ النَّافعُ هو أنْ يصدَعَ بقولِ (لَا أَدْرِي).

ولِجلَالةِ هٰذِهِ الكلمةِ صارتْ نِصْفَ العلم، كَما قَالَ:

فَذَاكَ شَطْرُ الْعِلْمِ عِنْـدَ الْعُلَمَـا ... كَذَاكَ مَا زَالَـتْ تَقُـولُ الْحُكَمَـا

فمِنَ الشَّائِعِ قولُهُمْ: «لَا أَدْرِي؛ نِصْفُ العِلْمِ».

وأقدمُ مَنْ أُثِرَت عنهُ هٰذِهِ الكَلِمَةُ هُوَ عَامِرُ بْنُ شَرَاحِيلَ الشَّعْبِيُّ، أَحَدُ التَّابِعِينَ. رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ وَغَيْرُهُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

نَعْمْ؛ وقعَ فِي كلَامِ أَبِي عُمَرَ ابْنِ عَبْدِ البَرِّ فِي «جَامِعِ بَيَانِ العِلْمِ وَفَضْلِهِ» وَفِي «الانْتِقَاءِ»؛ أَنَّهُ قَالَ: (وَصَحَّ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ قَالَ: «لَا أَدْرِي؛ نِصْفُ العِلْمِ»).

وَهٰذِهِ الكلمةُ لَمْ تُوجَدْ مَرويَّةً عن أَبِي الدَّرْدَاءِ فِي مَا فِي أَيْدِينَا مِنَ التَّآليف، فأخشىٰ أن يكونَ وَهَمًا.

فإنْ صَحَّ أنَّها رُوِيَتْ عنه؛ فأبو الدَّرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أقدَمُ من الشَّعْبِيِّ، فهو صحابيٌّ

وَالشَّعبيُّ تابعيٌّ، لٰكِنَّ المرويَّ بإسنادِهِ فِي الكتبِ الَّتي اتَّصلتْ بنَا هوَ مرويٌّ عن الشَّعْبِيِّ عند الدَّارِمِيِّ وَغَيْرِهِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

وَوَجْهُ كونِهَا نصفَ العلمِ: أنَّ العلمَ مقسومٌ بينَ (أَدْرِي) وَ(لَا أَدْرِي)؛ فَأَحدُهما نصفُ الآخرِ؛ ذَكَرَه يَحْيَىٰ بنُ آدَمَ فِيمَا رَوَاهُ عَنْهُ ابْنُ نَصْرٍ فِي «تَعْظِيمِ قَدْرِ الصَّلَاةِ».

فالعلمُ بينَ شيءٍ يُدرَىٰ وشيءٍ لا يُدرَىٰ، فالَّذي يُدرَىٰ يَتكلَّم به دارِيهِ بمَا يعرفُه، والَّذي لا يُدرَىٰ يُمسِكُ عنهُ المسْئُولُ فيقول: (لَا أَدْرِي).

ومِنْ لَطِيفِ العلْمِ: أَنَّ سَعِيدَ بْنَ عَبْدِ العَزِيزِ - أَحَدِ عُلَمَاءِ أَتْبَاعِ التَّابِعِينَ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ - كَانَ يَقُولُ: «لَا أَدْرِي لِمَ (لَا أَدْرِي) نِصْفُ العِلْمِ». رَوَاهُ عَنْهُ أَبُو زُرْعَةَ الدِّمَشْقِيُّ فِي «تَارِيخِهِ».

وَكَشْفُ مَا غَمُضَ عليهِ: هوَ المعنىٰ المتقدِّم الَّذي ذكره يحيىٰ بنُ آدمَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالىٰ.

وقدْ صَارَ هٰذَا الأصلُ - (لَا أَدْرِي) - أَصْلًا راسخًا في العلمِ عندَ أهلِه؛ أنَّ مَنْ سُئلَ عن شيءٍ منهُ لم يعلمْه فإنَّ الوصيَّة النَّافِعَةَ فِي حَقِّه أن يلزمَ قَوْلَ (لَا أَدْرِي)، حتَّىٰ صارَ أهلُ العلمِ والحِكمةِ يُوصِي بعضُهم بعضًا بلزومِ هٰذِهِ الكلمةِ.

وقد أشرتُ إلىٰ هٰذَا المعنَىٰ في أبيَاتٍ؛ قلتُ فيها:

وَقَوْلُ (لَا أَعْلَمُ) عِنْدَ الْعُقَلَا ... عُدَّ فِي الْعِلْمِ ونِصْفًا جُعِلَا
وفَقْدُهَا مِنَ اللِّسَانِ عَابُوا ... مَقَاتِلُ الْمَرْءِ بِهِ تُصَابُ
وَيَنْبَغِي لِعَالِمٍ أَنْ يُورِثَا ... أَصْحَابَهُ مَقَالَهَا مَا حَدَّثَا
لأَنَّهَا رَافِعَةٌ وَكَمْ قَضَىٰ ... بِحُكْمِهَا مِنَ الْأَنَامِ مُرْتَضَىٰ
وَغَيْرُهُ أَوْلَىٰ بِهَا وَأَجْدَرُ ... وَمَنْ يُضِيعُ رُشْدَهُ لَا يُنْصَرُ
وَآنِفٌ مِنْ قَوْلِهَا رَقِيعُ ... وَدِينُهُ فِي نَفْسِهِ وَضِيعُ
فَالْهَجْ بِهَا هُدِيتَ مَا اسْتَطَعْتَا ... وَالْزَمْ لَهَا فَنِعْمَ مَا اتَّخَذْتَا

قَالَ المُصَنِّفُ وَفَّقَهُ اللهُ:

إِيَّاكَ وَالْعُجْبَ بِفَضْلِ رَأْيِكَا وَٱحْذَرْ جَوَابَ الْقَوْلِ مِنْ خِطَابِكَا
كَمْ مِنْ جَوَابٍ أَعْقَبَ النَّدَامَهْ فَاغْتَنِمِ الصَّمْتَ مَعَ السَّلَامَهْ

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

حَذَّر النَّاظِمُ فِي هٰذَيْنِ البَيْتَيْنِ مِن بَلِيَّتَيْن تَكتنفَانِ المتكلِّم في العلمِ:

❁ **فالبَلِيَّةُ الأُولَىٰ**: مُداخَلَةُ العُجْبِ النَّفْسَ، وَتَسَلُّلُهُ إليهَا، فيَرَىٰ الـمُتكَلِّمُ فِي العلمْ لنَفسِه عَلَىٰ غيرِه فَضْلًا، ثمَّ يطلبُ لها قَدْرًا ووَصْلًا.

والعُجْبُ هُوَ النَّظَرُ إِلَىٰ النَّفْسِ بِعَيْنِ الإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ.

فتجد مِن النَّاس مَنْ ينتسبُ إلىٰ العلمِ ويُعَدُّ من أهلِه، وتعتريهِ هٰذِهِ البليَّةُ، فيُعجَب بنفسِه، ناظرًا إليها بِعَيْنِ الإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ، فهوَ يرىٰ أنَّ له من الكمالِ ما ليسَ لغيرِهِ، وأنَّ عندَه منَ الفضْلِ تَحْصيلًا وبيانًا مَا ليسَ عندَ سِوَاهُ، فَيزْهُو بنفسِه علَىٰ الخَلْقِ، وَهي منْ أعْظَمِ الغَوَائِل الـمُفسِدةِ للمرءِ فِي علمٍ أو غيرِه؛ لأنَّ العبدَ مأمورٌ أن ينظرَ إلىٰ نفسِه بعين النَّقص، مُجتهدًا في القيام بحقِّ الله.

ومنه: حالُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قيامِه اللَّيلَ حتَّىٰ تتفطَّر قدمَاهُ، فتقول له عائشةُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إنَّ اللهَ غَفَرَ لَكَ مَا تقدَّم من ذنبِكَ ومَا تأخَّر!، فيقول: «**يَا عَائِشَةُ؛ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»؛ فهو لا يرىٰ أنَّ ما له من حُسْنِ عبادةِ ربِّه شيئًا، وأنَّ الله حقيقٌ بدوام شُكْرِه، وأنَّه مهما أتىٰ مِن عبادةِ الله وتعظيمِه فإنَّ حقَّ الله أعظمُ.

فالمرءُ مأمورٌ أن ينظرَ إلىٰ نَفسِه بعينِ الإزراءِ والعيبِ، وأن يقمَعَ طُغيانَ العُجبِ

منها، فإنَّه إذا استولَىٰ علَىٰ قلبِ العبد أفسدَه.

فالمرءُ إذا أعجبتْه نَفْسُه في عبادةٍ أو علمٍ أو غيرهمَا، عَلِقَ بقلبه مِنْجَنِيقٌ ربَّما جَرَّه إلىٰ مهاوِي الرَّدَىٰ، وَلَا سبيلَ إلىٰ الخَلَاص منه إلَّا بملاحظة أنَّ **النِّعْمَةَ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا لَمْ تَكْتَسِبْهَا بِقِوَاكَ، وَلٰكِنَّ اللهَ هَدَاكَ.**

فإذَا أعجبَك أنَّك جالسٌ في حِلَق العلم، معدودٌ فِي طُلَّابه؛ فاعلم أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ له الفضلُ الأعظمُ عليكَ، فهو الَّذي هَدَاك إلىٰ ذٰلِكَ، وإلَّا لَكُنْتَ كغيركَ ممَّنْ تنظرُ إليهم بعينِ النَّقص ممَّنْ يُخالطونَ المعاصي أو يُضَيِّعُونَ أوقَاتُهم فيمَا لا ينفعُهم.

۞ **والبَلِيَّةُ الثَّانية**: ابتداءُ القولِ بشيءٍ لم يتكلَّم به أحدٌ قبلَك، فيكونُ إنشاؤُه من مُبتكراتِ خيالِك، ومُبتدَعاتِ أفكارِكَ.

ومَحلُّ الذَّمِّ: فيمَا يُحتَاج إليه من العلمِ المشهورِ، الَّذِي تكلَّم فيهِ أهلُ العلمِ طبقَةً بعد طَبَقَةٍ.

فالعدولُ عمَّا قالُوا، وإبداءُ سِواه؛ ممَّا يُعَابُ به المرءُ؛ لأنَّ العادةَ الجاريةَ أن يكونَ هٰذَا الَّذي أبدَاهُ غيرَ مبنيٍّ علَىٰ أصلٍ وثيقٍ، وَلا مَسبوقٍ بعالمٍ عتيقٍ، فهو يستحسنُ شيئًا ثمَّ يتكلَّم به، فمتىٰ وُجِدَت تلك الحالُ مِنَ العبدِ فإنَّها بَلِيَّةٌ.

[مسألةٌ]: لو قالَ إنسانٌ: نحنُ سَمعنَاكَ تقولُ: **الصَّلَاةُ** هيَ الحُنُوُّ وَالعَطفُ، وَنحن نحضرُ الدُّروسَ، ونقرأُ في الكتُبِ: (**الصَّلَاةُ** هِيَ الدُّعَاءُ)، فَأنتَ واقعٌ في هٰذِهِ البليَّةَ!

[الجواب]: نحنُ نُحِبُّ النَّاصحَ الصَّادقَ الَّذِي يَنصحنَا، فإنَّنا بشرٌ غير معصومين.

والجوابُ: أنَّ هٰذَا القولَ الَّذي ذكرتُه مُتَّصفٌ بوصفينِ:

أحدهما: أنَّه مبنيٌّ علَىٰ أصلٍ وثيقٍ؛ فإنَّ اسم (الصَّلاة) في كلامِ العربِ يقعُ علىٰ هٰذَا.

والآخر: أنَّ هٰذَا القولَ الَّذي ذكرتُه لكَ قدْ سُبِقْتُ بهِ من محقِّقِينَ لِلْعلمِ؛ منهم:

السُّهَيْلِيُّ، وابن القيِّم، وابنُ هشامٍ، والدَّمَنْهُورِيُّ، في آخرينَ.

وقد زَيَّفَ ابن القيِّم دعوىٰ أنَّ (الصَّلَاةَ هِيَ الدُّعَاءُ) فِي «بدائعِ الفوائدِ» مِن أربعةِ وجوهٍ.

فكونُك لا تعلمُ هٰذَا؛ لا يعْني أنَّ هٰذَا القولَ الَّذي سمعتَه قولٌ جديدٌ في العلمِ، وإنَّما هو جديدٌ عليك، أو جديدٌ علىٰ زمَانِ أهلِ علمٍ شُهِرَ عندَهُم قَوْلٌ حتَّىٰ غَلَبَ عَلَيْهِم هٰذَا القَولُ.

فالمذمومُ الممقوتُ: هو الَّذي لا يُبنَىٰ علىٰ أصلٍ وثيقٍ، وَلَا يرجِعُ إلىٰ علمٍ عتيقٍ.

ثمَّ محلُّ هٰذَا الذَّمِّ: فِيمَا يتعلَّق بهِ تقريرُ أصولِ الدِّين وبيانُ أحكامِه ممَّا تَتابَع عليه النَّاس، دونَ مَا بُنِيَ عَلَىٰ أصولِ الفهمِ والإدراكِ الَّتي جرىٰ عليهَا أهلُ العلمِ.

فمثلًا: لو قلتُ لكُمْ: إنَّ منْ أنواعِ علومِ الحديثِ نوعُ (المَقْرُونِ)؛ وهو أن يُذْكَرَ في الإسنادِ اثنانِ فأكثر؛ كأنْ يقولَ مسلمٌ: (حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ حُجْرٍ، وَيَحْيَىٰ بْنُ أَيُّوبَ، وَقُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ؛ جَمِيعًا عنْ إسماعيلَ بنِ جعفرَ...) إلَىٰ تمَامِه، فالثَّلاثة الأوائلُ تُسمَّىٰ روايتُهُم (مقرونًا)، وَهٰذَا النَّوع لَهُ وقوعٌ عند المُحدِّثينَ، ولهُ منفعةٌ في علمِهِمْ، فمِنْ منافعِه أنَّ هٰذَا يُسمَّىٰ (مُتَابَعَةً)، ففُلَانٌ وفلانٌ وفلانٌ رَوَوُا الحديثَ عنِ إسمَاعيلَ بنِ جعفرٍ، إلىٰ غير ذَٰلِكَ من منافعِه.

فحينئذٍ زيادةُ هٰذَا النَّوع ليس ممنوعًا منهَا؛ بل مأذونٌ بِهَا من وجوهٍ كثيرةٍ؛ **أيسرُها**: أنَّ أَوَّل مَنْ صَنَّف وعَدَّد أنواع علوم الحديث ممَّنْ صَنَّفَ في مصطلحِ الحديثِ هو ابنُ الصَّلاح، فذكرَ أنواعًا، وزادَ أهل العلمِ عليه أنواعًا، فزاد العراقيُّ، ثمَّ زادَ ابنُ حجَرٍ، ثمَّ زاد السُّيوطيُّ، حتَّىٰ بَلَّغها أكثرَ من تسعينَ نوعًا.

فالأصلُ عند أهلِ العلمِ في هٰذَا أنَّه محلٌّ للزِّيادةِ.

ولذَٰلِكَ ينبغِي أنْ يُحسِنَ المتكلِّمُ فِي العلمِ مواردَ الفهمِ من أصولِه الَّتي يُقرِّرها

أهلُه؛ حتَّىٰ يعرفَ ما يجرِي فيه القولُ، ومَا لَا يجرِي فيه القولُ.

وما كان ممنوعًا مِنَ القول فيه، فالسَّلامة فيه امتثال ما ذَكَره النَّاظم بقوله: (فَاغْتَنِمِ الصَّمْتَ مَعَ السَّلَامَهْ)؛ فَسَلَامَةُ دينِ الإنسانِ أن يمتثلَ الصَّمتَ؛ مُبتغيًا سلامةَ دينِه عندَ اللهِ، وعِرْضِه عندَ الخلقِ.

علىٰ أنَّ مَنْ نَبُلَ فِي العلمِ يُبْتَلَىٰ بمَنْ لم يَصِل إلىٰ مرتبةِ النُّبْلِ فيهِ مِمَّنْ يُزَيِّف أَقْوالًا صحيحةً فِي كلِّ قرنٍ وزمانٍ، وَلٰكِنَّ طريقَ إيصالِ الخيرِ إليهِ ليسَ بمُلاجَجَتِهِ ومجادلَتِه بالباطلِ، وإِنَّمَا بنَصْبِ الحقِّ، ولذَٰلِكَ فإنَّه **مَا مِنْ مسألةٍ يستغربُها سامعُها أذكرُهَا إلَّا وأذكرُ أحدًا من أهلِ العلمِ قالَ بهَا.**

فَهٰذِهِ المسائلُ الَّتي ذكرناهَا وأمثالُها من المسائلِ الَّتي يظنُّ بعضُ النَّاس أنَّ هٰذِهِ مسائلَ جديدةً؛ ما من مسألةٍ إلَّا وفيها من أهلِ العلمِ مَنْ تكلَّم؛ لأنَّ هٰذَا هوَ الأصلُ الَّذِي يَسْلَمُ به دينُ الإنسانِ ويحصلُ به النَّفع للخَلْق.

فإنَّه ليس المقصودُ مِن جَمْعِ العلم، أن يُنهِكَ المرءُ قلبَه ودينَه فِي مُراغمةِ النَّاس ومُجادلتِهم ومُجالَدَتِهِم، وإنَّما مقصودُ صاحبِ العلمِ الصَّادقِ أن يُوصلَه العلمُ إلىٰ اللهِ، ويكونُ هو مُوصلًا لِلخَلْق إلىٰ اللهِ، فمتىٰ كانت هٰذِهِ نيَّتُه فَتَحَ الله عليه بأنواع المعارف ولم يُشغِلْه بالخَلقِ.

وما أحسن قولَ ابْنِ عَوْنٍ: «ذِكْرُ النَّاسِ دَاءٌ، وَذِكْرُ اللهِ دَوَاءٌ».

وقال مَكْحُولٌ الشَّامِيُّ: «ذِكْرُ النَّاسِ دَاءٌ، وَذِكْرُ اللهِ شِفَاءٌ».

فاشتغلوا بالدَّواء والشِّفاء، واحذروا من الدَّاء.



قَالَ المُصَنِّفُ وَفَّقَهُ اللهُ:

الْعِلْــمُ بَحْــرٌ مُنْتَهَــاهُ يَبْعُــدُ ... لَــيْسَ لَهُ حَــدٌّ إِلَيْــهِ يُقْصَــدُ
وَلَــيْسَ كُلُّ الْعِلْــمِ قَــدْ حَوَيْتَــهُ ... أَجَلْ وَلَا الْعُــشْرُ وَلَـوْ أَحْصَـيْتَهُ
وَمَــا بَــقِي عَلَيْــكَ مِنْــهُ أَكْــثَرُ ... مِمَّــا عَلِمْــتَ وَالْجَــوَادُ يَعْــثُرُ

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ذكر النَّاظِمُ ممَّا يُستعانُ بِهِ في تحصيلِ المطلوبِ المأمولِ معرفتُه ممَّا يُسَهِّل بلوغَ الأَرَب: إدراكُ هٰذِهِ الحقائقَ المذكورةَ في هٰذِهِ الأبياتِ الثَّلاثَةِ، فكلُّ بيتٍ منهَا يُشَيِّد معنًىٰ سامقًا ذَا بَالٍ في العلم.

- **فأوَّلُهَا**: معْرِفَةُ مُلتمِسِ العلمِ أنَّ العلمَ واسعٌ لا مُنتهَىٰ لهُ، كما قال النَّاظم:

الْعِلْــمُ بَحْــرٌ مُنْتَهَــاهُ يَبْعُــدُ ... لَــيْسَ لَهُ حَــدٌّ إِلَيْــهِ يُقْصَــدُ

- **والثَّاني**: معْرِفَةُ مُلتمِسِ العلمِ أنَّه مهما حَصَّل منهُ فلنْ يجمعَه كُلَّه، ولا عُشْرَهُ، ولوِ اجْتَهَد في إحصائِه؛ فإنَّ القُوَىٰ البشريَّة تَتَناقصُ عن هٰذَا.
- **وثالثُها**: معرِفَةُ مُلتمِسِ العلمِ أنَّ ما بَقِي وفَضُلَ من العلم وراءَ ما أدركَه أكثرُ وأعظمُ، وهي حالُ النَّقْص الَّتي طُبِعَ عليهَا الإنسانُ، فالجَوَاد مهمَا كان قويًّا يَعْرِضُ لَه عِثارٌ يسقطُ به.

فملتمِسُ العلمِ مهمَا ابتغَىٰ منه مُجتهدًا، فإنَّه يبقىٰ وراءَ ما أدركَ مِنَ العلمِ علومٌ كثيرةٌ.



قَالَ المُصَنِّفُ وَفَّقَهُ اللهُ:

فَكُـنْ لِمَـا عُلِّمْتَـهُ مُسْـتَفْهِمَا ... إِنْ كُنْـتَ لَا تَفْهَـمُ مِنْـهُ الْكَلِمَـا

الْقَـوْلُ قَـوْلَانِ فَقَـوْلٌ تَعْلَمُـهُ ... وَآخَــرٌ تَسْــمَعُهُ فَتَجْهَلُــهُ

وَكُلُّ قَــوْلٍ فَلَــهُ جَــوَابُ ... يَجْمَعُــهُ الْبَاطِــلُ وَالصَّــوَابُ

وَلِلْــكَلَامِ أَوَّلٌ وَآخِــرُ ... فَافْهَمْهُمَا وَالذِّهْنُ مِنْـكَ حَـاضِرُ

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ذكر النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِنَ الإرشادِ النَّافعِ لملتمسِ العلمِ: أنْ يطلبَ فَهْم ما يُلْقَىٰ إليه منهُ، وإذا عَسُر عليه فَهْم شيءٍ من معانِيهِ اجتهدَ في تَفَهُّمِهِ وسألَ عنه؛ **لأنَّ الأقوال الَّتي تُذْكَر لكَ في العلمِ هي بالنِّسبة لك نوعان:**

- **أحدُهُمَا**: قَوْلٌ تَسْمَعُهُ فَتَعْلَمُه وَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْكَ.
- **والآخر**: قَوْلٌ تَسْمَعُهُ فتجهله وَيَخْفَىٰ عَلَيْكَ.

فالأوَّل إذا وصلَ إلىٰ قلبِكَ استقرَّ فيهِ، فإنَّك إذا فَهِمْتَ معنًىٰ من معاني العلمِ ووعَاه قلبُك، وجدَ له مَرْبعًا ومَحلًّا فيه.

وأمَّا ما تسمعُه فتجهلُه ويخفَىٰ عليك، فإنَّك تحتاجُ فيه إلىٰ الاستفهامِ والسُّؤالِ حتَّىٰ تُدرِك معناهُ، فيستقرَّ في قلبك.

فإذا عَسُر عليكَ فَهْم شيءٍ فاستعِدْ تَفَهُّمَه؛ إمَّا بتكرارِ النَّظر منكَ في سماعِ كلامِ مُعلِّمكَ، أو فِي الْتِمَاسِكَ منهُ إعادةَ بيانِ مَا سمعتَه منه ولم تفهمهُ.

وإيَّاك وإهمال فَهْمِ ما لَمْ تفهمْه؛ **فإنَّ تَرْك شيءٍ سمعتَه دونَ فَهْم يُورِثُ آفتينِ:**

۞ **الأولىٰ**: ثِقَلُ الفَهْمِ؛ فإنَّك إذا تركتَ شَيْئًا، وثَانِيًا، وثالثًا؛ تَبَلَّدَ ذِهنُكَ.

۞ **والأخرىٰ**: تَفْوِيتُ العلمِ؛ فإنَّك إذا تركتَ شَيْئًا، وثانِيًا، وآخرَ؛ فَاتَتْكَ أشياءُ من العلمِ لم تُحسِن معرفتَهَا.

مَعَ ما يُقارِن هاتين الآفتين من عِلَلٍ أخرىٰ؛ كوقوعِ الشُّبهاتِ، وكثرةِ الاعتراضاتِ؛ ممَّا يُوجب الاعتناء بحُسن التَّفهُّم.

فتارةً: تستعيد كلامَ مُعلِّمك ممَّا يُحفظ صوتيًّا، فتُكرِّره حَتَّىٰ يَقَرَّ المعنىٰ في قلبكَ.

وتارةً: تُذاكِر به صاحبًا لك، فرُبَّما يذكرُ لكَ مَا عَزُبَ عنه فَهْمُك.

وتارةً: تَستعيدُ - بأَدَبٍ - من مُعَلِّمِكَ فَهْمَ ما لَمْ تَفْهمْه.

فلَا تتركْ شيئًا تسمعُه من العلمِ دون فَهْمٍ؛ لِمَا يُورثُه من نَقْصٍ سبقَ ذِكْرُه وبيانُ وجهِه.

ثمَّ ذكر النَّاظِمُ أنَّ كلَّ سؤالٍ يتعلَّق به جوابٌ، فمُراده بـ(القَوْلِ): السُّؤالُ؛ بِدلالة مُقابلتِهِ بالجواب، وذٰلِكَ في قولِهِ:

وَكُلُّ قَوْلٍ فَلَهُ جَوَابُ ... يَجْمَعُهُ الْبَاطِلُ وَالصَّوَابُ

فالجوابُ له جهتَانِ:

۞ **إحداهما**: الجَوَابُ الصَّحيحُ، المَدْلُولُ عَلَيْهِ بقولِه: (الصَّوَابُ).

۞ **والأخرىٰ**: الجَوَابُ الخَطَأُ، المَدْلُولُ عَلَيْهِ بقولِه: (البَاطِلُ).

وتحقيقُ الحُكمِ علىٰ الجوابِ بإحدَىٰ الجهتينِ، مُناطٌ بموافقةِ الأدلَّةِ ومتابعَةِ الأَجِلَّةِ، فرِعاية هٰذَا يُوقِف العبد علىٰ جَلِيَّةِ الأَمرِ فِي الحُكم عَلَىٰ جوابٍ بأنَّه خطأٌ أَوْ صوابٌ، لَا بمجرَّد الذَّوق، أوِ الوَجْدِ، أو الخَاطِرِ، أو ما تَعَارَفَ عليه النَّاس، أو مَا اعتادُوه في بلدٍ؛ فمثلُ هٰذِهِ المعاييرِ ليستْ ميزانًا صحيحًا فِي الحُكمِ عَلَىٰ شَيْءٍ منَ الأجوبةِ بأنَّهُ جوابٌ صَحِيحٌ أَو جوابٌ خطأٌ.

وهٰذِهِ القاعدةُ تختَصُّ ببعضِ الكلامِ في العلمِ، وهوَ مَا وقعَ جَوابًا علَىٰ سؤالٍ.

ثمَّ ذكر قاعدةً عامَّةً فيه، فقال:

وَلِلْكَلَامِ أَوَّلٌ وَآخِرُ   فَافْهَمْهُمَا وَالذِّهْنُ مِنْكَ حَاضِرُ

والمقصودُ: أنَّ كلَّ كلامٍ فَلَهُ مبتدأٌ وله مُنتهًى، وله سِباقٌ وله لِحَاقٌ، وله إفرادٌ وله سِياقٌ؛ فكمالُ فَهْمِه يكونُ برعايةِ مواقعِه.

فتعتبِرُ أوَّلَ الكلامِ وآخِرَه، وسِبَاقَه ولِحاقَه، وإفرادَه وسياقَه؛ فيُوقِفُك ذٰلِكَ علىٰ الفهمِ الصَّحيح له.

فإن أخذتَ أوَّلَه وتركتَ آخره، أو أخذت سِباقَهُ وتركتَ لحاقَه، أوِ اكتفيتَ بمفردٍ دونَ النَّظر في تركيبِ سياقٍ؛ أوقعَكَ ذٰلِكَ في رَدِّ كلامٍ حقٍّ، ودَفَعك إلىٰ الزُّور والباطل في العلمِ.

وهي حالُ كثيرٍ من النَّاس، الَّذين يُبادرونَ إلىٰ تزييفِ حقٍّ لأنَّهم ينظرونَ إلىٰ أوَّل الكلامِ دونَ آخرِه، أوْ ينظرونَ إلىٰ سِباقِهِ دون لِحاقِه، أو ينظرونَ إلىٰ إفرادِه دونَ تركيبِ سِياقِه، فيقعُون فِي الغلط علىٰ العلم وأهلِه.

فمَنْ أرادَ أن يَسْلَمَ لهُ دينه وعِلمُه وعقلُه، لاحظَ هٰذَا في مواقِعِه من الكلامِ؛ فإنَّه يوقفُهُ علىٰ المعانِي الصَّحيحةِ، ويدفَع عنهُ دعْوَىٰ الزُّورِ الَّتي يدَّعيها مَنْ يدَّعيها علىٰ المتكلِّمين في العلم.

ولا يمكن حصولُ تلكَ الحالِ إلَّا بأن تكون حاضرَ الذِّهن حينَ ذٰلِكَ، **والمراد بـ(حضورِ الذِّهنِ)**: إقبالُ القَلْبِ عَلَىٰ المَعْنَىٰ المُرَادِ فَهْمُهُ، فإنَّك إذا زاغَ ذِهنك مُدَّةً وحضر مُدَّةً؛ أوقعَكَ في الغَلَطِ.

وأذكرُ من وقائع الأحوالِ: أنَّ أحدًا نَسَب إليَّ أنِّي أقول: إنَّ (هُو) من أسماءِ اللهِ!، وذكرَ أنَّني قرَّرتُ هٰذَا في جامعِ الرَّاجِحي بـ(شُبْرَا)، وأنَّه كان أحدَ الحاضرينَ، فلمَّا

ذُكِرَت هٰذِهِ الدَّعوىٰ لي ضحكتُ وذكرتُ هٰذِهِ الأبياتَ.

فإنَّني كنت أُقرِّرُ الفرقَ بين الاسمِ المفرد للهِ، والاسم المضافِ؛ **فالاسمُ المفردُ** هو الَّذِي يأتي واحدًا؛ مثلُ: (الله).

والاسمُ المضافُ هو الَّذي يأتي مجموعًا مع غيره؛ مثل: (ربِّ العالمينَ، ومالك الملكِ).

وذكرتُ أنَّ ابنَ القيِّم زاد نوعًا ثالثًا، هو الأسماء الإلهيَّة المزدوجَة المتقابلة؛ كاسمِ (القابضِ الباسطِ)، فلا يُفصَلُ أحدُ طرفيهِ عن الآخرِ، بمنزلةِ عَدم فَصْل حروف الاسمِ المفردِ، فلا يصحُّ أن تقولَ في اسمِ (القابضِ الباسطِ): أنَّ من أسماء اللهِ (القَابضُ)، أَوْ أنَّ مِن أسماء الله (البَاسطُ)؛ بلِ الاسم حينئذٍ هو (القابضُ الباسطُ)، فيمتَنِعُ الفصلُ بينهُمَا؛ كمَا يمتنعُ الفصلُ بين حروفِ اسم (الله)، فلا تقول: (أ) اسمٌ، ولا (اللَّام) اسمٌ، ولا (هُـ) اسمٌ.

فسمع هوَ: (هُـ) اسمٌ، فقالَ: إنَّ فلانًا يذكرُ أنَّ (هو) من أسماءِ اللهِ؛ لأنَّ ذهنَه حينئذٍ لَمْ يكنْ حاضِرًا، وإنَّمَا كان شاردًا، فسمِع هٰذِهِ الكلمة فظنَّ أنَّ فيها تقريرًا لكونِ هٰذِهِ الكلمة (هُو) من أسماءِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

والعاقلُ يلتمس العذرَ للمتعلِّمينَ، فإنَّ هٰذَا ممَّا لا يُستغرَب منه؛ بل لا يُستغرَبُ ممَّنْ يريدُ بكَ السُّوءَ، فإنَّ هٰذَا أَمْرٌ جُبِلَتْ عليه خَلِيقَةُ الإنسانِ، فإنَّ النَّاس يتنافسونَ، ويتَصارَعُونَ، ويريدُونَ الجَاهَ والرِّئَاسةَ والزَّعامةَ، ويبتغِي بعضُهُم فِي بعضٍ خطأَهُ؛ لإزلَالِه وإنزالِه عن رُتبةٍ بلغها.

فالعاقلُ إذا رأىٰ هٰذَا في النَّاسِ، عَامَلَهُم بمَا أَمَرهُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وعَقَلَ أنَّ هٰذِهِ حالٌ بشريَّةٌ، فَالمُتَرَفِّعونَ عنِ البشريَّة، المُزَكّون أنفسهم بما يُطَهِّرها، لا يلتفتون إلىٰ

مثل هَـذَا، ويـرون أنَّ صـدور هٰـذَا مـن الــمتعلِّمين زَلَّاتٌ ينبغِـي إفهـامُهم فيهَـا القـولَ الصَّوابَ.

والشَّاهدُ منَ الحِكَايةِ: أَنَّ مَا أَرشَدَ إِليهِ مِن كوْنِ حصولِ تِلكَ الحَالِ، لَا يُمكـنُ إلَّا مع حضور الذِّهنِ، وأمَّا معَ شُـرُودِه فإنَّه لا يحصُل للمرءِ ذَٰلِكَ.



قَالَ المُصَنِّفُ وَفَّقَهُ اللهُ:

لَا تَــدْفَعِ الْقَــوْلَ وَلَا تَــرُدَّهُ ... حَــتَّى يُؤَدِّيَــكَ إِلَى مَــا بَعْــدَهُ

فَرُبَّمَــا أَعْيَــا ذَوِي الْفَضَــائِلِ ... جَـوَابُ مَـا يُلْـقَى مِـنَ الْمَسَـائِلِ

فَيُمْسِكُوا بِالصَّمْتِ عَنْ جَوَابِـهِ ... عِنْدَ ٱعْتِرَاضِ الشَّـكِّ فِي صَـوَابِهِ

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

لَـمَّـا ذكر النَّاظِمُ في البيت السَّابِقِ ما يُعِينُ علىٰ فَهْمِ الكلام، حَذَّر من آفةٍ تعرِض لـمَنِ استغلَقَ عليهِ فَهْم شيءٍ منه، وهيَ (المبادرةُ إلىٰ دَفْعِه ورَدِّه)، فمِنَ النَّاس مَنْ إذا استغلَقَ عليه فَهْمُ شيءٍ لم يُدركْه؛ بادرَ إلىٰ رَدِّه ودَفْعِه.

والواقِي من السُّقوطِ في هٰذِهِ الآفةِ: هو ملاحظة ما يأتي بعد ذٰلِكَ الكلامِ، فرُبَّمَا سمِعتَ كلَامًا عامًّا يفتقرُ إلىٰ التَّخصِيصِ، أو كلامًا مُطلقًا يحتاجُ إلىٰ التَّقْييد، فبادرت إلىٰ إنكارِه قبلَ ظهورِ تَـمَامِه، وهوَ الـمُعِينُ عَلَىٰ فَهْمِه وإفهامِه.

كقَولِ الله تعالَىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٤﴾ [الماعون]، فهٰذِهِ الآيةُ لا يتمُّ معناها إلَّا بقَرْنِها بالآيةِ الَّتي بعدَها، في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ٥﴾ [الماعون]، فمَنْ يُقرِّر معنَىٰ الويلِ للمصلِّين بإطلاقٍ مُبطِلٌ، ومن يُقرِّر معنىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٤﴾ إذَا كانُوا علَىٰ الحالِ الَّتي ذكرهَا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ٥﴾ [الماعون]؛ كان مُحِقًّا فيما قرَّره.

فإنْ أعيَا السَّامعَ فَهْمُ كلامٍ، وتطلَّعت نَفْسُه إلىٰ رَدِّه ودَفْعِه وإبطالِه؛ حَسُنَ به أن يَرُدَّ

بعضَه علىٰ بعضٍ، قبل الهجومِ علىٰ إنكارِه وتزييفِه؛ اقتداءً بمسالكِ أهل العلم فيمَا هُم عليهِ من أجوبةِ مسائلِ الخلقِ فيما يحتاجون إليه من الحقِّ.

فإنَّ أهلَ العلمِ لا يُبَادِرُونَ بجوابِ استفتاءاتِ الـمُسْتَفْتِينَ حتَّىٰ يُتِمَّ الـمستفتِي كلامَه، كمَا قالَ:

فَرُبَّمَــا أَعْيَــا ذَوِي الْفَضَــائِلِ ... جَـوَابُ مَـا يُلْـقَى مِـنَ الْمَسَـائِلِ

فَيُمْسِكُوا بِالصَّمْتِ عَنْ جَوَابِـهِ ... عِنْدَ ٱعْتِرَاضِ الشَّـكِّ فِي صَـوَابِهِ

فمِنْ حالِ كُمَّلِ الـمفتِينَ إذَا عُرِضَتْ عليهمْ فتْوَىٰ، أنَّهم لا يُبادرُونَ إلَىٰ الجوابِ فيهَا؛ حتَّىٰ يتبيَّن لهم تـمامُ القولِ من الـمستفتِي، ثمَّ يُجيبونَه.

فتلكَ الحالُ الَّتي تصلح بِها حال النَّاس في الفتْوَىٰ، هيَ الحالُ الَّتي تصلحُ بِهَا حـالُهُم في فَهْمِ العلمِ، فَلَا يكمُل لهمُ الفهمُ ولا يَتِمُّ لهـمْ إدراك معانيـهِ إلَّا باستِتْمَـامِ مبانيـهِ، فـإذا صارت وافيةً تبيَّن لهمُ الـمعنَىٰ.



قَالَ المُصَنِّفُ وَفَّقَهُ اللهُ:

وَلَوْ يَكُونُ الْقَوْلُ عِنْدَ النَّاسِ ... مِنْ فِضَّةٍ بَيْضَا بِلَا ٱلْتِبَاسِ

إِذًا لَكَانَ الصَّمْتُ مِنْ عَيْنِ الذَّهَبْ ... فَافْهَمْ هَدَاكَ اللهُ آدَابَ الطَّلَبْ

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ذكر النَّاظِمُ في هٰذين البَيْتَيْنِ ما يُقَوِّي وازِعَ الصَّمْت في النَّفْس، ويدعُوهَا إلىٰ الإمساكِ عن كثيرٍ من القول، وهمَا معنىٰ حِكمةٍ سَيَّارةٍ: (إِذَا كَانَ الكَلَامُ مِنْ فضَّةٍ؛ فَالسُّكُوتُ مِنْ ذَهَبٍ).

وَالكلام الَّذي يكون فضَّةً: هوَ ما لا يتبيَّنُ نَفْعُه من ضَـرَرِه، **أَمَّا بَيِّنُ النَّفْعِ**: فإنَّه من خالِصِ الذَّهب، **كَمَا أنَّ بَيِّنَ الضَّـرَرِ**: شُوَاظٌ منَ اللَّهبِ.

فالكلام المُرادُ إخراجُه له ثلاثةُ أقسامٍ:

- **أحدُها**: كَلَامٌ بيِّنُ النَّفْعِ؛ وَهٰذَا مِنْ خَالِصِ الذَّهَبِ.
- **وثانِيهَا**: كَلَامٌ بيِّنُ الضَّـرَرِ؛ وهٰذَا شُواظٌ مِنَ اللَّهَبِ.
- **وثالثُها**: كَلَامٌ لا يتبيَّنُ نَفْعُه من ضَـرَرِه؛ فهو الَّذي يُعْدَل بالفضَّة، ويكون السُّكوتُ حينئذٍ من ذهبٍ، فإنَّ العبد مأمورٌ بقولِ الخيرِ أوِ الصَّمت عمَّا عداهُ.

والحِكمة المذكورةُ - (إِذَا كَانَ الكَلَامُ منْ فضَّةٍ؛ فَالسُّكُوتُ مِنْ ذَهَبٍ) - مأثورةٌ عن جماعةٍ منْ القدمَاءِ؛ منهم نَبِيُّ الله سُلَيمَانُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولُقْمَانُ الحكيمُ - الرَّجل الصَّالح.

ثمَّ ختم النَّاظم بالتَّأكيد علىٰ فَهْم ما ذَكَر في هٰذِهِ المنظومةِ من الآدابِ فقالَ: (فَـافْهَمْ هَدَاكَ اللهُ آدَابَ الطَّلَبْ)؛ داعيًا إلىٰ حُسْن تَفَهُّمِ هٰذِهِ الآدابِ، فإنَّ فَهْمَهَا يدعُو إلَىٰ العملِ بِهَا، كمَا أنَّ عدمَ فَهْمِهَا يحولُ دونَ العملِ بِهَا.

وقَرَنَ الأمرَ بالدُّعاء؛ ترغيبًا فيها، وتحبِيبًا لها إلَىٰ النُّفوس؛ ليحرصُوا عليهَا، ويمتثلُوا مُقتضَاهَا.



قَالَ المُصَنِّفُ وَفَّقَهُ اللهُ:

أَبْيَاتُهَـا مَـعَ الزِّيَـادَاتِ الَّـتِي حَبَّرْتُهَـا بِـأَرْبَعِينَ عُـدَّتِ

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

خَتمَ جَامعُ هٰذِهِ النُّبذة بهٰذَا البيتِ من زياداتِه، المُبيِّنِ عدَدَ أبياتِ هٰذِهِ المنظومةِ، وأنَّها أرْبعون بيتًا.

لِي منهَا خَمْسَةٌ: أربعةٌ في أوَّلِها، وواحدٌ في آخرِهَا.

وما بقيَ فهوَ أصلُ المنظومةِ.

ومعنىٰ قولِه: (**حَبَّرْتُهَا**)؛ أَيْ زَيَّنْتُهَا بِزيادَةِ الحِبْرِ فيهَا، فإنَّ **التَّحبيرَ** هوَ التَّزيينُ.

وَمِن تَزْيينِ الخطِّ: تسويدُ حِبْرِه.

فإنَّ الحِبْرَ إِذَا كَانَ قَوِيًّا بَانَ المكتوبُ وَظَهَرَ، كَمَا يبدُو ذٰلِكَ جليًّا إذا قَارَنتَ الأبياتَ الَّتي زِيدتْ ببقيَّةِ الأبياتِ، وهي مُحَبَّرَةٌ في خَطِّهَا، وغيرُها منْ أصلِ المنظومةِ مُحَبَّرةٌ في معانِيها النَّافعة.

فهٰذِهِ المنظومةُ هي من أحسنِ ما نُظِمَ في آدابِ الطَّلَب ممَّا هو وجيزٌ؛ كما ذكره أَبُو عُمَرَ ابْنِ عَبْدِ البَرِّ فِي «جَامِعِ بَيَانِ العِلْمِ وَفَضْلِهِ».

فحقيقٌ بنَا جميعًا: أن نحرصَ علىٰ حِفْظ هٰذِهِ المنظومةِ، أو تكرارِهَا حتَّىٰ ترسخَ معَانيهَا فِي نُفُوسِنَا، وأنْ نُحسِن تَفَهُّم تلكَ الحقَائقِ، ثمَّ نمتثلَهَا بالعملِ.

فإنَّ بابَ الآداب ممَّا وقعَ فيهِ العَجَبُ العُجابُ، فَضَيَّعهُ كثيرٌ منَ المنتسبينَ إلَىٰ طَلَبِ العلمِ؛ فحُرِمُوا العلمَ بسببِ تضييعِ الأدبِ، فمَنْ ضَيَّعَ الأدبَ حُرِمَ العلمَ، ومَنِ

التزمَ الأَدَب فهوَ جديرٌ بأنْ يكونَ من أهلِ العلمِ.

وبهٰذَا البيانِ يَتِمُّ بيانُ معانِي هٰذِهِ الـمنظومةِ علىٰ مَا يُوافقُ ويناسبُ المقَامَ.

تَمَّ الشَّرْحُ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ
لَيلةَ الخَميسِ الخامسِ من شَهْرِ المُحَرَّم
سَنَةَ ثمانٍ وَثَلاثِين بَعْدَ الأَرْبَعِمِائَةِ وَالأَلْفِ
فِي مَسْجِدِ مُصعب بن عُميْرٍ بِمَدِينَةِ الرِّياض




فَوَائِد



فَوَائِد


فَوَائِد



فَوَائِد


فَوَائِد


فَوَائِد


فَوَائِد



فَوَائِد